كتاب في جريدة
أصدرته منظمة اليونسكو عام 1996
عدد 83 الأربعاء 6 تموز / يوليو 2005

جمال أبو حمدان مختارات قصصية

تجاذب اليقظة والحلم

أنجزها وقدّمها فخري صالح

رسوم علي حسون





الشريك الثقافي



المؤسسة الراعية

بيان صحفي

معالي الشيخ محمد بن عيسى الجابر مبعوثاً خاصاً لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) للحوار بين الثقافات والتربية وحقوق الإنسان

عيّن مدير عام اليونسكو، كويشيرو ماتسورا، معالي الشيخ محمد بن عيسى الجابر، مؤسس ورئيس مؤسسة «إم بي أي. فاوندايشين»، في 18 آذار 2005 في مقر المنظمة بباريس، مبعوثاً خاصاً لليونسكو لحوار الثقافات والتربية من أجل الديمقراطية والتسامح وحقوق الإنسان. وسيقوم الشيخ الجابر، بموجب هذا التعيين، بتمثيل مدير عام اليونسكو في جميع المناسبات العالمية في الميادين ذات العلاقة بالمواضيع التي انتُدِب لها كمبعوث خاص للمنظمة.

جاء هذا التعيين تتويجاً لمسيرة الإنجازات المرموقة التي حققها الشيخ الجابر في دعم الحياة الثقافية العربية من خلال قيامه بالمبادرات الشجاعة والفاعلة في غمرة التحولات الكبرى التي تشهدها منطقتنا العربية. إضافة إلى إسهامات الشيخ الجابر المتنوعة في دعم التعليم العالي في مختلف الدول العربية واهتمامه الخاص بالعراق لمساعدته في إنجاح التجربة الديموقراطية وتجاوز الأزمة الراهنة في مختلف ميادين الحياة الاجتماعية، الثقافية والتربوية .

وكان الشيخ الجابر مؤسس ورئيس مؤسسة «إم بي أي. فاوندايشين»، قد وقّع عام 2003 بروتوكولاً طموحاً مع كويشيرو ماتسورا من أجل دعم العديد من المشاريع الثقافية والتربوية وبالأخص «كتاب في جريدة» وتطوير المناهج العربية ورفع كفاءات الهيئات التعليمية وتعريب الإنترنت.

إن الأهمية المطردة للدور البارز الذي يلعبه الشيخ الجابر في التصدي لكل ما يؤثر في الوضع الثقافي والتربوي في العالم العربي عبر نجاحه في إطلاق وقيادة عدد من المشاريع التي أثبتت جدواها وضرورتها، هي التي دفعت بالمنظمة الدولية ممثلة بمديرها العام إلى أن تخطو هذه الخطوة أملاً في المزيد من التعاون بين المنظمة الحكومية الدولية وبين «إم.بي.أي. فاوندايشين» باعتبارها منظمة دولية أهلية تعمل على ترسيخ التعاون والتسامح طريقاً للسلام عبر التربية والعلم والثقافة والاتصال.



على اليمين: السيد كويشيرو ماتسورا، مدير عام منظمة اليونسكو
على اليسار: الشيخ محمد بن عيسى الجابر، رئيس مؤسسة MBI FOUNDATION

البيان الختامي لأعمال المؤتمر الثاني لمشروع "كتاب في جريدة"

برعاية معالي الشيخ محمد بن عيسى الجابر رئيس مؤسسة MBI Foundation ومعالي الأستاذ فاروق حسني وزير الثقافة في جمهورية مصر العربية عقدت للفترة من 21 / 19 تشرين الثاني (نوفمبر) 2004 أعمال المؤتمر الثاني لمشروع "كتاب في جريدة" وذلك في فندق Four Seasons (الفصول الأربعة) في شرم الشيخ بجمهورية مصر العربية.

وحضر الاجتماع رؤساء تحرير وممثلو الصحف العربية المنضوية في مشروع "كتاب في جريدة". وتجلّت خلال المؤتمر طموحات واضحة نحو الارتقاء بأداء المشروع ومستواه خاصة بعد أن عبّر راعي المشروع معالي الشيخ محمد بن عيسى الجابر عن نيته في السعي إلى زيادة توزيع النسخ المطبوعة للوصول إلى عشرة ملايين نسخة شهرياً من الإصدارات المختارة وذلك بحلول العام 2007.

وأكّد المجتمعون أن ثمة واقعاً جديداً جعل من "كتاب في جريدة" أكثر من مجرد إصدار كتابي دوري وإيصاله للقارئ العربي مجاناً، مما حتم عليه أن يشهد اتساعاً في آفاق نشاطاته، وامتداداً في إسهاماته من أجل تعميم المعرفة بوصفها فاعلية أساسية في تنشيط إسهام النخبة والجماعة على حد سواء في التفاعل مع التطورات الهائلة، والاستجابة للتحديات الراهنة التي تفرضها معطيات الوضع العالمي.

وفي مدى هذا الاتساع لآفاق المشروع أقر المؤتمرون مبادرة راعي المؤتمر بتخصيص جائزة سنوية مادية ومعنوية بقيمة عشرة آلاف دولار لكل حقل وينشر الكتاب ضمن منشورات "كتاب في جريدة" وتشمل الحقول في مجالات الطفولة والمرأة والتنمية البشرية في الوطن العربي، على أن يجري تشكيل لجنة خاصة بالجائزة تتولى الإعداد لمشروع متكامل حول طبيعتها وشروطها وآليات منحها.

كما أكد المشاركون في المؤتمر ضرورة إنشاء موقع إلكتروني على الشبكة العالمية، يتضمن جميع الإصدارات الشهرية، إضافة إلى إصدار عدد سنوي في قرص مدمج لتسهيل عمل الباحثين وذوي الاختصاصات وتهيئة مادة اختزالية وأرشيفية أساسية في هذا المجال، على أن يجري العمل في السياق نفسه على التواصل مع منظمة اليونسكو لتفعيل المشروع الخاص بتدوين التراث الشفاهي والمكتوب في أقراص مدمجة خاصة وتوزيعه مجاناً مع الصحف الشريكة.

وفي إطار البرنامج القادم للعام 2005 ناقش المجتمعون وبصورة مستفيضة خلال جلستين صيغاً متعددة حول كيفية إقرار الإصدارات الشهرية وسط خيارات كثيرة خضعت للمناقشة المطولة في مجالات الأدب بشقيه التراثي والمعاصر والدراسات الفكرية والاجتماعية والترجمة ووجدوا أن هناك ضرورة لتوسيع مجالات النشر وحقوله المعرفية لتشمل جوانب من هذه المعارف وأهمية إصدار موجز مناسب عنها.

وانتهى المجتمعون إلى اعتماد البرنامج السنوي للعام 2005 باختيار خمسة عشر إصداراً جرى اختيارها بواقع عدد واحد كل شهر على أن ترجأ الإصدارات المتبقية لبرنامج العام 2006، من أجل إتاحة هامش لتلافي أي تعثر في تعذر إصدار أحد هذه الأعداد لأسباب ما.

وجاء برنامج الإصدارات الشهرية على النحو التالي:

1 - مختارات من أشعار مظفر النواب
2 - صيادون في شارع ضيق لجبرا أبراهيم جبرا
3 - مختارات قصصية لجمال أبو حمدان
4 - قصائد من أدب الطفل لسليمان العيسى
5 - عروبة القدس في عيون الرحالة العرب والأجانب
6 - رواية الفردوس اليباب لليلى الجهني
7 - مختارات من الشعر الشنقيطي
8 - نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي
9 - مختارات من الشعر السوداني
10 - نحو رؤية إنمائية للعالم العربي د. مهدي الحافظ
11 - مختارات من الكتابات الفكرية لأنور عبدالملك
12 - مختارات قصصية لواسيني الأعرج
13 - رواية الأرض يا سلمى لـ محمد أحمد عبدالولي
14 - مختارات من الكتابات الفكرية لقسطنطين زريق
15 - مختارات من إدوارد سعيد.

وفي ختام مؤتمرهم وجّه المجتمعون برقية إلى الشيخ محمد بن عيسى الجابر أثنوا فيها على رعايته الكريمة لمشروع «كتاب في جريدة» واستضافة أعمال مؤتمره الثاني.

جمال أبو حمدان
تجاذب اليقظة والحلم، مختارات قصصية

أنجزها وقدّمها فخري صالح

ولد جمال أبو حمدان عام ١٩٤٤ في جبل العرب بسوريا، على درب ارتحال عائلته من لبنان إلى الأردن. عاش في عمّان، وفيها وفي القاهرة وبيروت بدأ دراسته وأتمّها، حيث حصل على إجازة الحقوق.

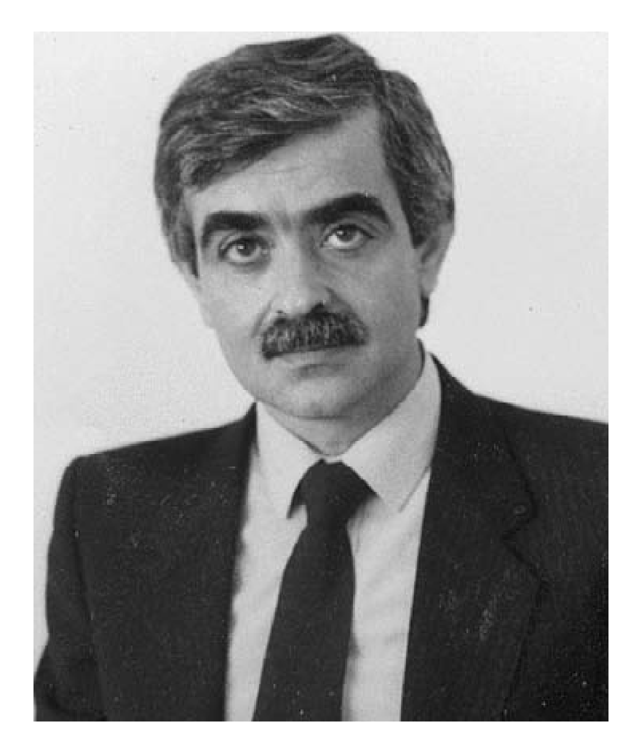
إلى جانب الكتابة التي بدأها في سن مبكرة، وواصلها في مختلف مجالات العمل الكتابي المقروء والمرئي، عمل مستشاراً قانونياً في الملكية الأردنية للطيران، ولكنّه تفرّغ خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة للكتابة، فأنجز، إضافة إلى الكتب، عدداً من المسلسلات الدرامية التي عرضت على معظم الشاشات العربية، من بينها: الصخر عندما ينطق، شهرزاد (الحكاية الأخيرة)، ذي قار، امرؤ القيس (الثأر المر)، الحجّاج، زمان الوصل، الطريق إلى كابول.

جمال أبو حمدان، إضافة إلى كونه كاتب قصة قصيرة وروائياً مميّزاً، كاتب مسرحي ذو باع طويل في هذا الفن، وقد شاركت أعماله المسرحية في المهرجانات العربية المختلفة، ولاقت العروض المعدّة عن أعماله المسرحية صدى كبيراً، ومنحت جوائز أردنية وعربية. كما شارك في لجان تحكيم عديدة في المهرجانات المسرحية العربية.

صدر لجمال أبو حمدان: أحزان كثيرة وثلاثة غزلان (قصص)، مكان أمام البحر (قصص)، نصوص البتراء (قصص)، مملكة النمل (قصص)، البحث عن زيزياء (قصص) ، موت الرجل الميّت (قصص) ، كتاب الأيام والأنام (مختارات قصصية أعدّها فخري صالح)، زمن البراءة (قصص)، الموت الجميل (رواية)، قطف الزهرة البريّة (رواية)، خيط الدم (رواية)، النهر (رواية للأطفال)، حكاية شهرزاد الأخيرة (مسرح)، ليلة دفن الممثلة جيم (مسرح)، القضبان (مسرح)، زمان آخر (مجموعة مسرحيات)، كلام الحجر (نصوص مشتركة مع كتّاب عرب وفرنسيين) ، الخروج الثاني (دراسة في النزوح الفلسطيني).

يمثّل عمل جمال أبو حمدان علامة بارزة في الكتابة القصصية العربية خلال السنوات الثلاثين الأخيرة، وقد استطاع أن يرسّخ حضوره على خريطة القصة العربية من خلال مجموعته الأولى «أحزان كثيرة وثلاثة غزلان» التي نشرت طبعتها الأولى عن منشورات مجلة مواقف في بيروت عام ١٩٧٠، ثم من خلال ما تابع نشره من قصص في الصحافة العربية السيّارة. ويمكن لقارئ هذه المختارات أن يلاحظ الطاقة السردية العالية والكثافة اللغوية التي توافرت عليهما قصص جمال أبو حمدان. وتقوم هذه القصص بعامة على تغريب الحدث القصصي والشخصيات والحالات التي يرسمها جمال أبو حمدان. كما أنّها تقوم على نزع الإلفة عن عناصر عمله القصصي، ودفع القارئ باتجاه إدراك غرابة العالم الذي يصفه، والتعرّف على المأزق الذي تحياه شخصياته.

إنّ عالم جمال أبو حمدان هو عالم الشخصيات المنسحبة من سياقها الاجتماعي الضاغط، الشخصيات الباحثة عن خلاص وجودي في الفن أو التأمّل أو الانطلاق بعيداً عن الوجود الأرضي المكبّل للروح النبيلة. ويمكن القول إنّ قصصه تعبير مجازي عن الرغبات الوسواسية التي تتسلّط على شخصياته وتدفعهاه للهروب بعيداً عن الفساد الذي ينخر عالم البشر ويمزّق أواصر العلاقات الإنسانية بينهم. ويعمل القاص، للوصول إلى تعبير أمثل عن هذه الرغبات، على كتابة حكايات مجازية تضفي عليها لغته الشاعرية، وقدرته على تفجير الطاقات الإيحائية للغة، معاني عميقة تفسّر الوجود الإنساني وتكشف عن التصوّرات الفلسفية التي تغلّف عالمه القصصي. إنّ قصصه تقيم في فسحة بين الخيال والواقع، في تجاذب الحلم واليقظة.



علي حسون

ولد الفنان علي حسون في صيدا (لبنان) عام ١٩٦٤. انتقل إلى إيطاليا عام ١٩٨٢ لإكمال دراسته في أكاديمية الفنون الجميلة في مدينة فلورنسا. عام ١٩٩٢ يحصل على شهادة البكالوريوس من جامعة ميلانو قسم الهندسة المعمارية.

أقام العديد من المعارض الشخصية والجماعية في إيطاليا وحصل على أكثر من جائزة فنية.

في أعمال علي حسون يلتقي الغرب بالشرق، الشمال بالجنوب. وتتقاطع الجوانب الروحية للثقافة الإسلامية بديناميكية وتطور الثقافة الغربية. والثقافتان متأثرتان ببعض عبر آلاف السنين من النتاج الفني.

ونجد في رسوم الفنان علي، وخاصة الخلفيات، الكثير من الإشارات والأشكال التي تشير إلى حضور الثقافة الغربية كجزء مكمل للعمل الفني مثل مايكل أنجلو، رافائيل وبييرو ديلا فرنشيسكا. وهو يسعى إلى إحالتنا، عبر هذه الإشارات، إلى أجواء صوفية إسلامية والكشف عن الجوانب الروحية التي من الممكن التعبير عنها عبر الجسد الإنساني والمراجع الطبيعية والمدنية الأخرى ورصد الحياة اليومية في مختلف أشكاله. إنها تشخيصية صعبة يحاول الفنان من خلالها المزج بين عدة عوالم تبدو مختلفة ومتباعدة فيما بينها، لكنه يستطيع بنجاح المقاربة فيما بينها ويخلق ما يشبه الحوار بين إنسانيات مختلفة دون قسرية.

فوزي الدليمي

الراعي
محمد بن عيسى الجابر
MBI FOUNDATION

المؤسس
شوقي عبد الأمير

المدير التنفيذي
ندى دلّال دوغان

الإستشارات الفنية
صالح بركات
غاليري أجيال، بيروت.

المَقَّر
بيروت، لبنان

* **يصدر بالتعاون مع وزارة الثقافة**

تصميم و إخراج
Mind the gap, Beirut

سكرتاريا وطباعة
هناء عيد

المطبعة
پول ناسيميان،
پوميغرافور برج حمود بيروت

الإستشارات القانونية
"القوتلي ومشاركوه - محامون"

الإستشارات المالية
ميرنا نعمي

المتابعة والتنسيق
محمد قشمر

الصحف الشريكة
الأهرام القاهرة
الأيام رام الله
الأيام المنامة
تشرين دمشق
الثورة صنعاء
الخليج الإمارات
الدستور عمّان
الرأي عمّان
الراية الدوحة
الشعب الجزائر
الشعب نواكشوط
الصحافة الخرطوم
العرب طرابلس الغرب وتونس
مجلة العربي الكويت
القدس العربي لندن
النهار بيروت
الوطن مسقط

خضع ترتيب أسماء
الهيئة الإستشارية
والصحف للتسلسل الألفبائي
حسب الاسم الأول



كتاب في جريدة
العدد الثامن عشر
التسلسل العام: عدد رقم 83
(6 تموز 2005)

ص.ب 1460-11 - بيروت، لبنان
تلفون/فاكس 630 248 (1-961+)
تلفون 219 330 (3-961+)
kitabfj@cyberia.net.lb

تجاذب اليقظة والحلم
مختارات قصصية من جمال أبو حمدان
أنجزها وقدّمها فخري صالح

مملكة النمل
(سيرة غير ذاتية .. وغير مكتملة)

في بلد لا يكف عن التفجع والنحيب؛
وجد الأطفال دموعاً متحجرة، وحبات قلب مبعثرة معفّرة،
فجمعوها، ولعبوا بها فرحين.
الأطفال الأشقياء المشاكسون، ما عادوا جديرين إلاّ بالمنافي.

ما كنت طفلاً شقياً، ولا مشاكساً، فما جمعت دموعاً ولا حبات قلب، ولا لعبت بها فرحاً.

بل كنت في طفولتي المبكرة، مغموراً بسكينة رضية، سببت لي عزلة عن الآخرين، وتوحداً مع نفسي.

لكن في ساعة النفي، وجدتني بين الأطفال الآخرين، وإن لم يكن ذنبي كذنبهم.

فبعد طفولتي المبكّرة، وفيما كنت أدرج نحو طفولتي الوسطى، وهي عتبة طفولتي المتأخرة (إذ عشت كل حياتي، وحتى الممات طفلاً) قرأت كتاباً عن مملكة النمل، جلبه لي أبي بتوصية من أمي. ولم يعجبني الكتاب. فما عرفت ماذا أفعل به، إذ تحيرني الأشياء التي لا أريدها، أما الأشياء التي أريدها فلا أحتار في أمرها.

وظلّ الكتاب عندي طوال الصيف والخريف، إلى أن رأيت أمي في أمسية شتاء، توقد المدفأة، فأسرعت إلى الكتاب ورميته في النار. وكنت أظن أنني أقدّم خدمة لأمي بمساعدتها في تأجيج اللهيب، إلاّ أنها زعقت بي زعقة حادة، جاء على أثرها أبي راكضاً من الغرفة الأخرى، وسأل ما الأمر، فأخبرته أمي بما فعلت، فقال: «لم تجد غير كتاب مملكة النمل لتحرقه، وهو خير الكتب في كل زمان وكل مكان. أنت لا تستحق الكتب التي نحضرها لك.»

وذهب إلى غرفتي، فجمع كل كتبي. حملها ورماها في النار، فالتهبت بألسنة مدّتها في وجه الشتاء، ففرحت بها لأنني لم أكن أحب الشتاء.

وراقب أبي وأمي احتراق الكتب حتى صارت رماداً، فالتفتا إليّ وقالا: «أنت لا تُفيد فيك الكتب، وإذا كنت ستتعلّم، فمن الحياة نفسها.»

وساعدهما على هذا النهج الذي وجداه ملائماً لتعليمي وتربيتي، أن مات في اليوم التالي صديق لأبي، فقال لأمي: «ألبسيه ثياباً لائقة قاتمة، فسآخذه معي إلى بيت العزاء.»

وسحبني من يدي إلى بيت الميت.

فدخلنا ووجدنا رجالاً كُثراً. جلسنا صامتين، أمام ملامحهم الكابية وغير الواضحة، بسبب إطراقتهم وبسبب الضوء الشحيح في المكان.

ولأنني لم أكن أعرف من هو الميت منهم، والذي جرني أبي إلى بيته لأتعلّم فيه عن الحياة، فقد أخذت أتفرّس في وجوه الجالسين، محاولاً أن أكتشف الميت بينهم. حتى أعيتني المحاولة، وفشلت، فملت على أذن أبي، وسألته: «أبي، من هو الميت من بين هؤلاء؟»

كشّر أبي ونهرني: «تأدب يا ولد في حضرة الموت.»

فتأدبت وصمت، لكني لم أكف عن محاولة معرفة الميت بنفسي.

إلى أن شغلني عن محاولتي أحد الجالسين، حين تنحنح وتحشرج صوته بخشوع وقال: «الدايم هو الله. هذه الدنيا ممر عابر إلى مقر دائم. وما علينا إلاّ أن نحسن مرورنا فيها. ولو تعلمنا من مخلوقات



الله وأخذنا العبرة، لوجدنا فيها سعادة الدنيا ونعيم الآخرة. وأصغر مخلوقات الله النمل. لو تعلّمنا من النمل لكفانا ذلك، فانظروا كيف يعيش النمل في مملكته وينظمها بنشاط ودأب.»

هنا إنفلتّ من جانب أبي، ووقفت وسط المكان، وصحت: «لن أتعلّم من النمل. النمل كله سيئات، ولا حسنات فيه. نشاطه لا معنى له. وأنا لا أحب النمل. يظل طوال الصيف يحمل حبوباً أكبر منه، يكدّسها في وكره، ليأكلها طوال الشتاء. ما هذه الحياة المملّة! أنا أفضّل عليه الصرصار الذي يغني طوال الصيف ويجوع طوال الشتاء.»

في البداية إنشرح الموجودون، لطفل صغير له هذه الجرأة ليجادلهم.. إلى أن قلت: «لماذا تتعلمون من النمل.. فأنتم مثله. ميزة النمل الوحيدة أنه يتكاثر بأعداد كبيرة، لتموت منه أعداد كبيرة.»

هنا وجم الجميع (إذ انتقلت، كما فسّر لي أبي فيما بعد، من جرأتي المحببة إلى وقاحة منفرة)، وقفز أبي من مكانه، وجرّني من يدي، وهو يقول: «فضحتنا يا ولد.. عظّم الله أجركم.»

وجرّني إلى خارج بيت العزاء، دون أن أتعرّف على الميت.

وفي بيتنا أنبأني أبي، وأيّدته أمي؛ بأنني لا أصلح حتى للتعلّم من الحياة.. ولهذا لن يأخذني بعد الآن إلى أي بيت عزاء.

فظلت فكرتي، عن الموت مبهمة، بعد أن حُرمت من الكتب، إثر حرقي لكتاب مملكة النمل، وحرمت من دروس الحياة، إذ فضحت أبي في حضرة الموت.

وذات يوم، بينما كنت أستمتع بحرماني من الكتب، وحرماني من زيارة بيوت العزاء، فكّرت في نفسي، وقلت؛ لا يمكن أن أظل على هذه الحال.

وقبل أن أهتدي إلى طريقة أغيّرها فيه، وبينما كانا يظنان بأنني نائم، سمعتهما يتهامسان:

«الحق عليكَ أنت. تأخذه في أول درس عن الحياة إلى ميت في بيت عزاء. حرام. الموت نهاية وليس بداية.. فلماذا تبدأ له به!»

أجاب أبي: «ماذا أفعل، إن كان أصدقائي هم الذين يموتون، أما صديقاتك فهن اللواتي يلدن.. فخذيه إذن ليشهد بداية الحياة.»

وما أن أطل الصبح، حتى كانت أمي تلبسني ثياباً زاهية، وتمشّط لي شعري، وتقول برقة: «تعال معي يا حبيبي. صديقتي ستنجب مولوداً جميلاً.. تعال لأبارك لها، وتتفرّج أنت على المولود.»

وذهبت معها سعيداً. فلا بدّ أن يكون مشهد طفل حديث الولادة جميلاً، ومبهجاً للنفس.

دخلنا وجلسنا ننتظر مع النساء، حول امرأة تصرخ بألم شديد، تحيط النساء بها ويحدّقن بذعر، إلى أن ولد المولود. وما أن شاهدته مقلوباً متدلي الرأس، حتى راح يزعق زعيقاً حاداً، وكأنه طائر صغير إنقض عليه طائر كاسر في كبد السماء.

بينما كانت كل النساء حوله فرحات.

وحين سألت أمي: «لماذا يزعق هذا المولود!»

همست لي: «أنه بذلك يعلن عن ولادته ومجيئه إلى الحياة، قلت: «بالبكاء!؟». ونفرت من الطفل.

فأجابت: «يبكي لأنه خرج من الرحم الذي كان يعيش فيها مرتاحاً إلى دنيا أخافته.» فنفرت من الأم التي أخرجته..

وحين أكملت أمي: «أنت فعلت مثله حين ولدت».. نفرت من نفسي..

ورحت أتلهى بالتحديق في وجوه النسوة، ولم أعد أنظر إلى الطفل.

وحين أرضعت الأم الطفل ونام، راحت النسوة يتحدّثن.. فأنصتُّ إليهن دون أن أنطق بكلمة إلى أن قالت إحداهن: «آه من هذه الحياة الشقية.. نقضيها كلها بالعمل والشقاء، ثم يأتي عناء الحمل، وألم الولادة.»

فضحكت واحدة، وقالت: «لو كنا نعيش في مملكة النمل، لكانت حياتنا أريح.»

هنا هببت، وقفزت من حضن أمي، ووقفت وسط الغرفة، وصرخت فيهن: «لماذا تتمنين أن تكن مثل النمل.. أنتن مثله؛ تعملن، ثم يأتي الذكر يلقحكن، ويذهب عنكن. النمل غبي، ميزة النمل الوحيدة، أنه يبيض بيضاً.»

جحظت العيون إليّ. أما أمي فهبت، وجرّتني من يدي وهي تقول: «فضحتني يا ولد. مبروك، جعله الله من أبناء السلامة».. وخرجت بي.

وفي البيت تداولت أمي مع أبي في شأني، فقال أبي: «لا أدري ما أفعل به. يبدو أنه لن يفيد من معرفة الحياة.. لا في الولادة ولا في الموت.»

هنا تدخلتُ في حديثهما عني، وقلت: «لا تكلفا خاطركما بالتفكير في حالي. أنا أعرف كيف أتدبّر أمري.»

وركضت خارجاً من الدار، إلى أن وصلت إلى ساحة البلدة؛

وكان كبار البلدة، حشدوا في الساحة، الأطفال الذين جمعوا الدموع المتحجرة، وحبات القلب المبعثرة ولعبوا بها..

وكانت أيدي الأطفال وأرجلهم ربطت إلى بعضها بخيوط رقيقة لامعة، ليصيروا كتلة واحدة.. فوقفت بينهم، وجاء أحد الكبار ربط يدي ورجلي إلى أقرب طفل مني ووقفنا ننتظر.. إلى أن قال قائل من الكبار: «فإلى أين ننفيهم؟!» فأجابه قائل أكبر منه: «إلى مملكة النمل، لعلهم يتعلّمون شيئاً عن الحياة الحقيقية.»

هنا أصابني الذعر، وحاولت أن أفك الخيط الذي يربطني إلى الآخرين، وأتخلّص منه وأعود إلى البيت.

إلاّ أن محاولتي فشلت، فهدأتُ، وتمنيتُ لو أنني لم أحرق كتاب مملكة النمل؛ لكنت الآن طفلاً سعيداً بين أبيه وأمه.

وأخرجني من هذه الأفكار، تحرك رهط الأطفال، فتحركت معهم. مشينا نهاراً وليلة ونصف نهار آخر، على طريق نعرفها، إلى أن وصلنا في منتصف النهار التالي إلى مملكة النمل.. هكذا أخبرنا الكبير الذي يقودنا، ووافقه الكبير الآخر الذي يحرسنا.

ولم أدهش حين وجدت أن كل النمل الذين رأيتهم في أطراف مملكة النمل، قبل وصولنا إلى مستقرنا فيها، كانوا يشبهوننا شبهاً كبيراً؛ برؤوس فوق أكتافهم، وأيد متدلية على جذوعهم وأرجل تسبق إحداها الأخرى فتلحقها هذه وتسبقها، هكذا دون توقف. إلاّ أنهم كانوا أكثر تأنقاً من أهل بلدنا.. وكانت وجوههم طافحة بالبِشر والمسرة، وليست كوجوه أهل بلدنا الكابية المعبوسة بالشقاء.

ولم يلتفتوا إلينا، في مرورنا الجماعي بينهم.

وكانت مملكتهم، أجمل بلاد رأيتها في حياتي، مع أنني لم أر قبلها غير بلدتنا، لكن الفرق بينهما مذهل.

وفكّرت لوهلة؛ كيف يكون النمل مثلنا، وفكرتي عنهم أنهم حشرات سوداء أو شقراء أو بيضاء تدب على الأرض، وتلفي إلى أوكار حاملة حبوباً أكبر منها.

ففكرت؛ ربما، لشدة ما تمنينا أن نصير مثلهم، صرنا. وربما لشدة ما تمنوا أن يصيروا مثلنا، صاروا. فاحترت من الذين صاروا مثل الآخرين؟!. وتمنيت لو أنني لم أحرق كتاب مملكة النمل، قبل أن تتكشف لي كل أسراره..

بتنا ليلتنا الأولى في مهجع أعدوه لنا.

وفي اليوم التالي وزعونا على مطارح كثيرة، وأودعونا لدى عائلات من النمل، لنتعلّم منها الحياة الحقيقية.

ولأنني طفل مختلف، فقد أودعوني مكاناً مختلفاً.

إذ لم تكن أسباب نفيي كغيري، فأنا لم ألعب بدموع وحبات قلب.

كما كان عليّ أن أخفي عن النمل، أنني أحرقت كتاب مملكتهم..

لكن في ليلة ما، وفيما كنت أهذي، أمام طفلة العائلة التي أودعت لديها، اعترفتُ باحراق ذلك الكتاب. ولإحساسي بالندم على زلة لساني، كدت أبكي، لولا أن وجدتها تضحك، وتقول: «حسناً فعلت. فهذا كتاب عتيق، لا يمثلنا، ولا يليق بنا.»

فارتحت.

ثم أخذتني من يدي، وقالت تعال نتفرج على مملكة النمل..

فعرفت أن المملكة كلها مدينة واحدة..

وأن المدينة كلها حي واحد.

وأن الحي كله بيت واحد.

وأن البيت كله غرفة واحدة، لكنها مكتظة بالنمل.

وأن عليّ أن أعيش بقية حياتي في تلك الغرفة..

وأن يمر عليّ زمن طويل قبل أن أجرؤ على القول هذه الغرفة بدل تلك الغرفة.

وليس للغرفة التي تتكون منها مملكة النمل، أبواب.. فلا يدخل إليها أحد، ولا يخرج منها أحد.

وليس لها نوافذ.. فلا يطل منها أحد من الداخل، ولا يطل عليها أحد من الخارج، فلا داخل اليها ولا خارج منها..

وسقفها شاهق العلو، بالنسبة لقامات النمل، والنمل لا يرفع نظره عن مستوى النظر، فيُظن أن لا سقف لها..

وأرضها منبسطة واسعة.. لكنها بلا تعرجات، وليس فيها ارتفاع ولا انخفاض، ولا سهل ولا وعر، وليس لها حدود بيّنة، فيُعتقد أن لا أرض لها..

ولم يبق منها ماثلاً، وحقيقي الوجود، إلاّ جدرانها الصلبة الشاهقة.. لكنها متباعدة عن بعضها بعداً لا يدرك بالرؤية، ولا بالرؤيا.. فصار يُعتقد أنها بلا جدران.

ويوماً شغلني أمر هذه المملكة الغريبة، فسألت صديقتي النملة، عن حدودها..

ابتسمت بعذوبة وقالت: «لماذا يشغلك الأمر، وتفكّر بالحدود البعيدة، ولا تفكّر بما في داخلنا.. نحن قسّمنا المملكة إلى ممالك صغيرة.. وحدود كل مملكة منها، هي جلد صاحبها.»

صرختُ بحدّة: «هذا غير صحيح.. النمل يتبع بعضه بعضاً، كأنه محشور في جلد واحد.»

وندمت لصرختي.. وكانت نفسي قد تطوعت على الندم بعد كل فعل. أما هي فلم تقل شيئاً. صمتت بانكسار، وأمسكت مجلة للأطفال، وراحت تقرأ منها بصوت مسموع؛

كلما صغر الكائن الحي، ازداد خفقان قلبه.. فقلب الذبابة يخفق ألف مرة في الدقيقة الواحدة، وقلب أكبر حوت لا يخفق إلاّ خمس مرات في الدقيقة، وأن لدودة الأرض عشرة قلوب.

هنا قاطعتها، وصحت: «ربما أن قلب الديناصور لكبره وضخامته، لا يخفق أبداً. أو أنه خفق مرة واحدة خلال حياته.. ولهذا انقرض.»

وبعد صرختي، صمتتُ، إذ تركت المجلة، وراحت تحدّق في عيني..

ففكرت؛ كم مرة يا ترى يخفق قلب النملة وهي أصغر من الذبابة..

وأشفقت على النمل من شدة وكثرة خفقان القلب.

في اليوم التالي، (وهذا تعبير حملته من بلدتنا، إذ ليس في مملكة النمل، أيام.. وليس فيها أمس ولا يوم ولا غد.. وليس الزمن إلاّ امتداد أوهمياً، غير مجزأ إلى مواقيت، وما فيه إلاّ اللحظة أو الهنيهة الراهنة.. لكن تجاوزاً، من أجل ترتيب أفكاري، واسترجاع ذاكرتي، أقول في اليوم التالي)؛ كنا، أنا وصديقتي النملة نتجوّل في مملكة النمل، حين وقفتْ فجأة، وسألتني: «هل ترغب في أن تزور كبيرنا.؟»

وكانت هذه أول حقيقة معرفيّة صعقتني في مملكة النمل، إذ عرفت أن فيهم صغيراً، وكبيراً.

أجبت بتسرع: «لا.. فأنا لا أحب الكبار وأنفر منهم..» ورويت لها كيف صحبني أبي، لأتعلّم الحياة إلى بيت ميت، لا يعرف شيئاً عن موته. وكيف صحبتني أمي لأتعلّم عن الحياة إلى بيت مولود، يزعق مرعوباً من الحياة حين خروجه إليها.

وكررّت: «أنا لا أحب الكبار.»

رمقتني بنظرة حادة، فندمت على ما قلت.

وإذ كنت منذ لحظة أن فكرت بشدة وكثرة خفق قلب النمل، شعرت بود تجاهها، فقد مشيت معها إلى حيث كبير النمل، الذي راح يرنو إلى وجهي بنظرات غريبة، ثم قال لي: «اسمع يا بني..» فلم أسمع شيئاً إذ كنت أحدّق في وجهه وأتملى ملامحه الريقّة، الأنيسة..

وإذ لاحظ ذهولي عما يقول، نهرني: «إسمع يا بني..»

فرحت أنصت إليه، وكانت هي طوال الوقت تنظر إلى وجهي لترقب تأثر ملامحي بحديثه: «أنت لم تجمع حبات قلب، ولا لعبت بها، لكنك أقحمت نفسك في رهط الأطفال المنفيين.. إنك منغمس في الواقع.. والواقع مكتظ بالواقعية، ومزدحم بها، فلا يترك لنا مجالاً لحرية العيش..

الواقع يا بني، مزيف، ومخاتل، ومخادع.. وهذه هي مفارقة الحياة المكربة..

أما الخيال، فهو وحده الذي لا يكذب. هو وحده الصادق، إذ لا كذب إلاّ بالمقارنة. والخيال لا يقارن بغيره، فهو قائم بذاته. مكتف بذاته، وكامل به. مرة واحدة تجرأتَ وخرجتَ على نفسك، حين أحرقت كتاب مملكة النمل، لتؤجج لهباً. ثم جبنت، فلم تفعل غيرها، وستظل طوال عمرك، مديناً تدفع الثمن.»

كنت أنظر إليه، وكلما ازداد فزعي، ازددت تعلّقاً بكلماته، إلى أن قال: «مشكلتك أنك منغمس في الواقع، حتى صرت تجهل نفسك، وأبواك أساءا تعليمك وتربيتك، وما أن تعود إليهما من هنا، حتى يدركا خطأهما.»

فزعت من فكرة العودة.. لكنني ما جرؤت على أن أناقشها مع كبير النمل، فيما كانت صديقتي النملة تحدّق في وجهي الهلع، دون أن تنفعل بما ينتاب أعماقي..

إلى أن انتشلني من بئر أعماقي بالقول: «إذهب يا بني الآن.. وانضمّ إلى رهط الأطفال المنفيين، العائدين من المنفى. رفاقك تم تأهيلهم للعودة إلى بلدتهم وأهلهم.. أنت لم تُفد شيئاً في طفولتك بين أهلك في بلدك، ولم تفد شيئاً في طفولتك التي قضيتها بيننا.. ولن تفيدك طفولتك الباقية لحياتك.. لكنك رغبت أن تكون مع الجماعة، فاذهب معهم.»

تململت في قعدتي، وكدت أسأله: كم بلغ من العمر، حتى امتلك كل هذه الحكمة!

لولا أن صديقتي النملة، رمقتني زاجرة، ثم اقتربت مني وهمست: «ألا تدرك أنه ميت.. ولولا ذلك ما كان له أن يخاطبك هكذا.»

فحاق بي لجملتها عجب صاعق، ردته عني ووقتني هوله، بأن أكملت: «الحياة تستهلك العمر، وتستنفده، ولا يبقيه ويحفظه من النفاد، إلاّ الموت.. فقم بنا.»

فقمنا، وخرجنا من عنده.

ورافقتني صديقتي النملة إلى مشارف الساحة الكبرى، التي أُعد فيها احتفال كبير لوداعنا.

وافترقنا، دون أن أودعها.. إذ أدركنا معاً لحظة الوداع، رغم العشرة الطويلة بيننا في مملكة النمل، أن خفق قلبينا ليسا متسقين.. فقد كان لي قلب طفل إنساني، قليل الخفق، واهٍ وبطيء.

فانفصلت عنها، وانضممت إلى أطفال بلدتنا، الذين تجمعوا لرحلة العودة إلى البلدة، في احتفال مهيب، حضره نفر من مملكة النمل.

وبعد إلقاء الكلمات المناسبة.. اصطففنا بانتظام وسرنا، خارجين من مملكة النمل، داخلين بلدتنا..

ولحظت دون دهشة، وبخلاف ما كان عليه الأمر، عند قدومنا؛ أنه ليس بين البلدة، ومملكة النمل مسافة، أو طريق، أو حدود.. بل إن الساحة هي الساحة ذاتها.. في البلدة، وفي مملكة النمل معاً. ويكفي أن نشعر بأنها للوداع، فنودِّع فيها.. أو أنها للإستقبال، فنُستقبل فيها.

وبخلاف رحيلنا في المرة السابقة، لم تكن هناك خيطان رقيقة، أو حبال تقيّد أيدينا أو أرجلنا في عودتنا، بل كانت الألفة تجمعنا، واللهفة تقود وجهتنا إلى البلدة.. حيث أُعد احتفال كبير لاستقبالنا.

وأخذت نفوسنا تبتهج، كلما شعرنا بقربنا من بلدتنا وأهالينا، حتى كادت البهجة تنسينا ثقل الأحمال على ظهورنا.

إذ كان كل منا يحمل على ظهره حبة قمح أكبر من حجمه وأثقل من وزنه، وبها عدنا إلى البلدة من نفينا البعيد والطويل في مملكة النمل.

وكان أهل البلدة كلهم خرجوا إلينا، و لمحت بينهم أبي وأمي، فهتفت أعماقي بالغبطة، ولولا أنني كنت أمسك بحملي للوّحت لهم، ولولا أنني كنت خلال مكوثي في مملكة النمل نسيت لغة الأهل، لهتفت بهم.

وما أظن، إذ راقبت نظراتهما المتطلعة إلينا، إنهما عرفاني بين المجموع.. فقد كنا كلنا نشبه بعضنا شبهاً مطابقاً، وما كان لأحد أن يتميّز عن أحد.

وربما هذا ما أربك أهل البلدة؛ فما لاحظنا أن أحداً منهم ذكراً أو أنثى، أبدى أية مشاعر خاصة تجاه أحد منا، وقد عدنا إليهم، فظلوا في انتصابهم صامتين، ونحن أمامهم ذاهلين.

إلى أن بلغ زحفنا وسط الساحة.

وقد عجبنا، حين تفرسنا في قاماتهم ووجوههم، إنها ما زالت، كما كانت عليه في اليوم الذي غادرنا فيه البلدة، وكأن الزمن لم يمر عليهم قط، وما زال ساكناً عند تلك اللحظة.. بينما كان الهرم قد أصابنا نحن، إذ مرّ علينا في مملكة النمل ثقيلاً بطيئاً؛ فانحنت قاماتنا، حتى أوصل الإنحناء أيدينا إلى مستوى أرجلنا، فصرنا نمشي على أطرافنا الأربعة.. وهذا يساعدنا في حمل أشياء أكبر منا على ظهورنا المستقيمة بشكل أفقي على موازاة الأرض.. وكنا ما نزال أطفالاً.

وحين رفعنا وجوهنا، إلى أهل البلدة، وكانت حركة شاقة لأعناقنا القصيرة الثخينة، وجدناهم يحملقون فينا بنظرات ذعر بيّنة..

وما لمحنا في عيونهم أية لهفة، أو أشواق إلينا..

فانشغلنا بانزال أحمالنا عن ظهورنا، وكومناها في وسط الساحة..

ثم اندفعنا إلى أهالينا للسلام.. فإذا بهم يرتدون إلى الوراء مذعورين، وأبقوا على مسافة بيننا وبينهم، إلى أن صاح صائحهم: «كيف تصبرون عليهم. النمل حشرات كريهة ومؤذية، وإذا أبقيناهم وسكتنا عنهم، سيدمرون بلدتنا الجميلة، التي حافظنا عليها طوال هذا الدهر.»

وما أن أتم الصائح، حتى أخرجوا أسلحة فتاكة لم نرها في البلدة من قبل، وراحوا يرشقوننا بها.

أما الذين لم يكن معهم مثل تلك الأسلحة، فراحوا يضربوننا بكل ما تقع عليه أيديهم، وداستنا الأقدام.

فقضوا علينا، قضاءاً كاملاً وناجزاً.

وفي لحظة موتي الأخيرة، نظرت إلى أبي وأمي نظرة لوم وعتاب، فما اكترثا لي، وما عرفاني.

ونظرت إلى الأحمال في وسط الساحة، فوجدت أن الساحة خلت منها تماماً. وكانت قد صارت في أيدي الأهل يتخاطفونها بينهم.. ويبتعدون.

ولا أدري، لماذا تذكرت في لحظتي الأخيرة، كتاب «مملكة النمل»،فندمت ندماً قاتلاً على إحراقه.. وكدت أموت من الحسرة عليه.

إلاّ أنني حين سمعت أهل البلدة يغنون غناء شجياً، أثناء ابتعادهم بحبوب القمح، ليخزنوها في أوكار كبيرة أعدوها لخزن الحبوب طوال الصيف، أدركت أنهم كانوا أثناء غيابنا، يتعلمون أغنية الصرصار، حتى أتقنوها..

أصخت السمع إلى غنائهم الصرصاري وهم يحملون الحبوب التي أحضرناها من مملكة النمل.. فارتاحت روحي، وسررت..

ومتُّ.

بعد أن أنزل الشمس عن كتفيه عند العتبة.. دلف الرجل (الذي دلف اليوم إلى الأربعين من العمر)، إلى رطوبة ظليلة، خطا عبرها إلى زاوية شحيحة الضوء، انزوى فيها.. فيما كانت المرأة التي لم تبلغ الأربعين من العمر، ولن تبلغها أبداً، تطل عليها.

رفع الرجل، (الذي هوّم طوال النهار وحيداً في دروب مستوحشة، وما كان يدري إن كانت تمتد أمامه أم في داخله، حتى رماه الاعياء في هذه الزاوية)، نظراً كليلاً، ومدّ إلى ملامح المرأة نظرة ذاوية، خاف أن تتفتت وتتساقط قبل أن تبلغها، فشدّ أعصاب حدقتيه إليها، وتفرّس ملامحها، دون أن ينطق.. ثم أعاد بصره إلى الأرض، إلى أن ردّه إليها، اشتياقه إلى أُلفتها الدافئة التي يضنيه افتقادها.

فرنا إليها، وهمّ بالنطق، فلم يقو عليه، إنما هزّ رأسه باستجابة مبهمة، لإيماءة مبهمة منها، كأنما تسأله؛ هل تذكر!

وإذ كان يذكر، أصابته رعدة خفيفة، من خشية ممضة للنفس، أن تخونه الذاكرة يوماً، فيطوي عندها المرأةَ نيسانٌ خشن قاس وبارد، فلا يبقى له ما يقي روحه قشعريرة عيشِ أيامه الباقية.

تمتم بارتعاشة شفتيه، ورعش روحه، كأنما يجيب سؤالها المبهم.. ثم سكن، دون أن يخفض عينيه عن ملامحها، إنما امتد بينهما فراغ أشهب، لم يعد يدري، أين يمتد فيها إليه، وكيف يمتد فيه إليها!

أحس لوهلة، أنها كانت طوال الوقت تنتظره، وعانت من صبر موحش لتستدرجه الآن بصبر نافد إلى الحديث.

أما هو، فما عاد إليها، إلاّ بتوق ناضب، وبلهفة خثّرها زمن مجدب ممتد.

لكن روحه على كلالها، كانت مصغية، لما تهيأ له أنها ستقول: «مر الزمن.. سنة وراء سنة».

وأكمل هو، بصوت بلا رنين أو صدى: «وها، قد بلغتُ الأربعين، اليوم.»

وكاد يكمل: أما أنت فلن تبلغيها قط..

لولا أن أحسّ بطعنة نصل مثلّم تخترق أعماقه، وتسد فيها منافذ القول، فصمت، وكاد يطرق، لولا أن تهيأ له أنها تخاطبه: «كنت طيباً».

أومأ بحركة خفيفة.

«كنتَ طيباً.. وما زلتْ».

مسّت نفسه غبطة شفيفة، إذ لم تقل: «أطيب مني.»

فهي ما زالت أمينة على عهدهما.

ابتسم نحوها بحنو، وصار حنوه غامراً، يفيض على روحه، وهو يرنو الآن إليها، واستجاب لهذه اللحظة الرخية، التي راحت تغلف سكينته، وتوقظ ذاكرته.

قالت له في بداية زواجهما: «أنا أكبر منك عمراً.».

قال لها: «أنت أكبر مني قلباً.».

وكاد يكمل: أنت أرحب مني نفساً. أنت أحنّ مني صدراً. أنت أدفأ مني حضناً.

لولا أن وضعت إصبعها على شفتيه، فصمت، وقبّل إصبعها. وكأنما تعاهدا منذ تلك اللحظة الغامرة، على أن لا يشيرا إلى بعضهما بأية صيغة من صيغ التفضيل، وأن لا يذكرا سنوات عمريهما، طوال عيشهما المشترك.

إلى أن خذلته، ونأت نأيها البات المطلق.

وكأنما حدث البارحة.

حرّك الرجل الذي بلغ الأربعين رأسه حركة لا تشي بشيء، وتذكر: عندما التقينا أول مرة، كنت أقف بعيداً عن كل شيء. ثم كأنما يشهق بلوعة: أواه.. بعيداً عن كل شيء.

أما هي فكانت تقول: لم أكن بعيدة، ولم أكن قريبة. إنما أعي تماماً، أنني في بقعة جرداء موحشة، وعرة المسالك.. وكنت عطشى.

كانت يومها قد بلغت الثلاثين.

وكان يومها في السادسة والعشرين.

وهشّتْ في وجهه وقالت: «وعلى الضفة الأخرى القصية، توجد ينابيع ومروج.»

فهتف في لحظة الصبوة: «سأكون جسراً تعبرينه إليها.».

قالت: «لا. سيكون جسرٌ. نعبره معاً».

وصمتا معاً.

وما عبرا معاً.

إنما خلّفته، وعبرت وحدها، وانفلتت من إسار البعد والقرب، ومن إسار الكبر والصغر، ومن إسار العمر كله، وراحت ترمح في المروج غير المرئية التي تراءت لها.

فانزوى في زاويته الشحيحة الضوء.. فإذا هي ماثلة هناك.

وما عاد يدري، إن كان ثمة جسر يمتد أمامهما، أم يمتد بينهما، أم أنه هو الجسر، إلاّ حين انكفأ على داخله، وحاول أن يبكي ليغسل روحه، فما وجد روحاً، بل أصغى لأصوات تصدّع وتهدم وانديام. لم تفزعه، بل أحس معها بالسكينة، حين اطمأن إلى أن تهدمه لا يثير جلبة خارج نفسه.

وما قدر بعدها على البكاء.

وما زار قبرها إلاّ بعد سنوات من نأيها، حين بلغ التاسعة والثلاثين، وقف على القبر وناجاها، مثلما كانا يتناجيان: اليوم، صرنا كلانا في نفس العمر.».

وأحسّ بتوق راعف للالتقاء بها، وشهق من اللوعة، فما استجابت لتوقه، وما قدر على مكابدته، فانتظر الشمس لتغرب، وتلفّع بالغسق خارجاً من المقبرة، دون أن يلتفت.

واليوم بلغ الأربعين.. ولم يزر قبرها.

هام في دروب موحشة، ليوازن بين حال الدنيا، وحاله، حتى أمضّه الشوق، فارتد إليها، إلى مثولها الشفيف في زاويته الشحيحة الضوء، المترعة بالشجن.

ها، قد مرّ عام آخر، أحس فيه أن روحه هرمت تماماً، إذ خلت حتى من حجارة وغبار التهدّم.

وظل سادراً في العمر، حتى أوصلته وحدته الموحشة إلى سن الأربعين، فيما أبقاها توحدها الأنيس مع المطلق في التاسعة والثلاثين.

نظر إليها، وهمس بالقدر الذي يبلغها صوته، دون أن يخدش سكينتها: «اليوم صرت أكبر منك عمراً.».

وما انتظر، أو تهيأ له، أن تقول شيئاً.

إنما أحس بأعماقه تكاد تتفلّع، وهي تشهق دون أن تطفر عيناه.

ثم انكفأ إلى نظرة شوق وعتاب، وتمتم: «أكان يجب أن تفعلي ذلك لتجعليني أكبر منك عمراً»!

سكن لبرهة،

ثم قام واقترب. دنا منها، دون أن تدنو منه، بل أحسها ترمح لتصير أكثر نأياً، إن كان لهذا النأي أن يُقاس.

ونزع الشريط الأسود الذي ظل لسنوات مثبتاً على زاوية إطار الصورة.

أمسك الشريط بين أصابعه، وظل حائراً ماذا يفعل به، إلى أن أحس بيده ترفع الشريط الأسود، وتمسح به دموعه.

لوهلة، تجمعت كل أحاسيسه في أطراف أصابعه، التي تمسك بالشريط الأسود، وكل ما عدا ذلك خواء، حين شعرت أصابعه ببلل دموعه على الشريط، دافئاً، ثم أخذ يبرد.



يوم الإجازة

مع إنبلاج فجر اليوم، تبدأ إجازة الجلاد.
ومع إنبلاج فجر الغد، تنتهي إجازة الجلاد.
يوم فريد ومختلف، مُلْكٌ له بكل هنيهاته.. ما حظي بمثله، منذ بدأ عمله.
أثناء ممارسة عمله، تزوج، فمُنح إجازة لزوجته.
وأثناء زواجه، رُزق بإبن، فنال يوم إجازة لابنه. ثم رُزق بابنة، فحظي بيوم إجازة لابنته.
وما كانت تلك الأيام، تشبه اليوم، إذ انشغل بمن أُجيز لهم، عن نفسه.
أما اليوم فله وحده. لمتعته الذاتية، لابتعاده عن أجواء عمله المكربة، عن الزنازين، وعن منصّة الإعدام، التي ظل يقف بجانبها معظم أيام عمره، يضع الغطاء على رأس المحكوم بالإعدام، ثم يشدّ الحبل، فينتفض جسد المحكوم، وتفيض روحه.
في أيامه الأولى، العتيقة، كان يحس بألم مريع في عنقه، وبروحه تختنق في داخله.
وفي الأيام التي تلت، صار ألمه يخف، وأخذت روحه تستقر في بدنه.. فسارت حياته برضى وقناعة، وزايلته كوابيس ليله، وصار يحلم أحلاماً ريقه هانئة ينساها في نهاره.
وأتى عليه دهر، كثر عليه العمل، فصار يوصل ليلاً بنهار. فساحة الإعدام مكتظة، والحبل دائم التوتر، والرؤوس مشرئبة تنتظر القطاف.
ففي زمن القهر، كان عليه أن يُعدم الثوريين. وفي زمن الثورة كان عليه أن يُعدم القاهرين. وحين استقرت الثورة فتنافرت، كان عليه أن يعدم ثوريي اليسار، وفي زمنهم كان عليه إعدام ثوريي اليمين. وفي زمن الوحدة، أعدم الانفصاليين، وفي زمن القطرية كان عليه أن يعدم الوحدويين. وفي زمن الرجعية، أعدم التقدميين. وفي زمن التقدمية، كان عليه أن يعدم الرجعيين. وفي أيام الرأسمالية، أعدم الاشتراكيين، وفي زمن الاشتراكية، أعدم البرجوازيين، وفي زمن الاعتدال أعدم الراديكاليين، وفي زمن الراديكالية، أعدم الليبراليين. وفي زمن الأصولية كان عليه أن يقطع رؤوس العلمانيين، وفي زمن المتدينين كان عليه أن يجتث الدنياويين.
أزمان تتوالد من أزمان، وتتبدل، وهو وحده ثابت لا يتغير، ويعجب لهذا الحبل الفائق القدرة، كيف يقدر أن يوحّد مصير كل هؤلاء البشر المختلفين.
ولم يعد لديه وقت يتوقف ويفكر في نفسه، التي نسيها، حين أعطى ذاته كلياً للآخرين. وما عاد قادراً أن يفصل تتابع الأيام، بيوم إجازة مختلفة.
إلى أن هل زمن، قالوا له فيه: يمكنك أن تتمتع بيوم إجازة كامل، فليس لدينا محكومون بالإعدام.. فاذهب وتمتع.
هكذا بدأ الجلاد يوم إجازته.
عند الفجر، إستيقظ على تغريد الطيور، ومنع نفسه أن يسمعها فيها استغاثات مخنوقة.. فاستمتع.
عند الصباح، ذهب إلى البحر، ومنع نفسه أن يرى أمواجه دماء دفّاقة.. فاستمتع.
عند الظهر، دخل حديقة، ومنع نفسه أن يرى الأزهار رؤوساً ذابلة.. فاستمتع.
عند المغرب، ذهب إلى غابة، ومنع نفسه أن يرى الأشجار أجساداً متدلية، والأغصان أيادي تستغيث.. فاستمتع.
في المساء، سهر تحت الليل الساجي، ومنع نفسه أن يرى فيه ظلمة الزنازين.. فاستمتع.
وظلّ ريّق النفس، مستمتعاً طوال يومه بكل هنيهة فيه، إلى أن بلغ استمتاعه الذروة، فأحس بالنعاس، واستأذن زوجته وابنه وابنته.. ودخل غرفته لينام.
ونام الإبن والإبنة.
أما الزوجة، فظلّت ساهرة، قلقة بهواجسها، ثم تنفلت بتمتمة: «لا نريد أن نخسره. رجوته أن لا يأخذ إجازة.. رجوته.».
لكنها تركته لإغفاءته الهانئة، في يوم إجازته الوحيد، حتى الفجر.
عند الفجر، خطت إلى باب غرفته، لتوقظه للذهاب إلى عمله.
تعثّرت بهواجسها، حتى وقفت أمام الباب.
ترددت.
ثم دفعت الباب، فانفتح.
وقفت، ولم تفاجأ، إذ لم تجد الجلاد في سريره.
ولم تفاجأ، حين رأت جثته تتدلى بحبل من سقف الغرفة.



أمضينا طوال الليل في تجهيز البنادق والذخيرة، وانهمكت النساء في إعداد الطعام للرحلة.

ومع منبلج الفجر، خرجنا إلى الفضاء الواسع.

تعاونا في حمل الطعام، والأدوات، وعلّقنا البنادق في اكتافنا.

كنا سبعة رجال.

واحد منا لم يحمل بندقية، وواحد حمل بندقيتين، والآخرون كل واحد وبندقيته.

خرجنا على غير ما اتفاق حول وجهة رحلتنا، وما هي القنائص التي نسعى وراءها.

كان بعضنا يفضل قنص البر، وآخرون يفضلون قنص الجو.. أما صيد البحر فوجدنا أنه لا يليق بنا.

كنا سبعة رجال. اثنان ماهران بقنص البر، وثلاثة ماهرون بقنص الجو، وواحد حديث عهد بكليهما، وسابع لا يحب القنص ويرفضه.

على أننا خرجنا كلنا معاً، وأبقينا نساء المتزوجين منا، وأبناء المنجبين منا، في دار أحدنا ينتظرون عودتنا، وقد منيّناهم بصيد وفير.

كان نهار ذلك اليوم الذي خرجنا فيه إلى القنص، رائقاً. وحين طلعت الشمس من وراء التلال، أنارت لنا دربنا، وألقت ظلالاً متطاولة امتدت أمامنا، وراحت تقودنا.

كنا قليلي الكلام أثناء الطريق، فما تبادلنا غير عبارات قصيرة لازمة، لتحديد مسار رحلتنا، وحاولنا أن نتجنّب الدروب الوعرة، إلاّ أن الدروب صارت تقهرنا وترغمنا وتحدد مسارنا.

إلى أن وصلنا إلى المنطقة التي ما عدنا نقدر على تجاوزها، فتريثنا، واخترناها منطقة للصيد، وتبعثرنا بين صخورها وأشجارها.. وكل يصوّب بندقيته نحو هدف متوقع.

إلاّ أن النهار مرّ من دون أن نصطاد شيئاً، فكانت رصاصاتنا تئز في الفضاء أو تنكث التراب، وتترك صدى وانياً، يتلاشى في الجو المحيط بنا.

وحده الذي لم يحمل بندقية، ويكره الصيد، ظلّ ينتظرنا تحت شجرة وافرة الظل، على صخرة ملساء.. يقرأ في كتاب اصطحبه معه إلى رحلة القنص. كان الكتاب يحكي عن الأرض والفضاء من دون أن يذكر حيوانات البر، أو يشير إلى طيور الفضاء.

مع انطواء النهار، عدنا وتجمعنا عند الصخرة الملساء، تحت الشجرة الوارفة، خاليي الوفاض من القنص، وبنادقنا خالية من الذخيرة.

أكلنا الطعام الذي جلبناه من الدار، وعبأنا بنادقنا بذخيرة جديدة، في انتظار طلة نهار آخر، نعود فيه بصيد.

تسامرنا طوال الليل، وبقي كاره الصيد والمحب للقراءة، صامتاً.

إلى أن قال أحدنا: «غريب أمر هذه المنطقة، تبدو خالية تماماً من حيوانات البر، ومن طيور الجو.»

هنا، أغلق الكتاب الذي ظلّ مفتوحاً على رغم شح الضوء، وقال: «بل إن المنطقة مكتظة بها، فطوال غيابكم كانت الحيوانات تأتي إليّ، وتهجع عندي، وكانت الطيور تحوّم فوق رأسي، حتى أنها صرفتني عن القراءة.. ».

جحظت العيون إليه، وحاصرته بنظرات حادة.

فعاد إلى التلهي بتقليب الكتاب بين يديه.. وران صمت مطبق علينا كلنا.

بعد ذلك أغفى من أغفى، وسهر من سهر، إلى أن أيقظ ضوء النهار الجميع، فقمنا إلى بنادقنا، أشرعناها، وسرنا وراءها.. وتخلّف عنا سابعنا الكاره للصيد.

وانطوى نهار آخر، ضجّ فيه الجو بأزير رصاصنا، من دون أن نصطاد شيئاً.

والتقينا على هذه الخيبة عند المغيب، فتجمعنا، وقررنا العودة إلى مكاننا عند الصخرة تحت الشجرة، حيث خلفنا عندها سابعنا.

تحركنا معاً صوبها، وكنا صامتين، منكسي الرؤوس والبنادق.. إلى أن قال واحد منا: «سيشمت بنا مرة ثانية».

وقال ثان: «لماذا أحضرناه معنا، ما دام يكره القنص».

وهتف ثالث: «إنه ليس منا على أية حال... لا نحسّ تجاهه بمشاعر من حب أو بغض».

فصاح رابع: «بل إننا نكرهه..».

فقال خامس: «هو الذي يكرهنا. ألم تروا كيف نظر إلينا، حين عدنا من القنص خائبين..»

قال سادس: «بينما كانت الحيوانات والطيور هاجعة عنده».

صاح الخمسة: «هل تصدّقه!؟».

أجاب السادس: «أصدقه. حسنته الوحيدة، أنه لا يكذب».

تبادلنا النظرات، وأشرعنا بنادقنا المنكوسة، واتجهنا بخطى قوية نحو الصخرة الملساء والشجرة الوارفة، ورحنا نقترب بحذر، إلى أن أطللنا على المكان.

عندها، أغمضنا عيوننا، وشددنا بأصابعنا على أزندة البنادق، فتراشق أزيز الرصاص، وأعقبه تداخل الأصداء، ثم صمت كل ما حولنا.

دنونا من المكان.

كان سابعنا الذي يكره القنص، جالساً على الصخرة الملساء، مسند الظهر إلى جذع الشجرة الوارفة، ورأسه منكفىء على صدره، والكتاب مرمي بقربه تقلّب صفحاته نسائم الليل الذي راح ينسدل على المكان.

وما أن وقفنا أمامه، حتى تمكنا من إحصاء الرصاصات التي أطلقناها.. وكانت كلها صائبة. إذ ما زالت الثغرات مفتوحة في جسده تنفر بالدم.

وما أن تيقنا من دقة تصويبنا، حتى غفلنا عن التفكير في سبب فزع الحيوانات والطيور وابتعادها.. وانشغلنا بجمع الأغصان الغليظة القوية؛ لإعداد نعش نحمل عليه جثة سابعنا الذي ظلّ على جلسته طوال الوقت.

وحين أنهينا إعداد النعش، جلسنا نتسامر، ولم يكن لدينا فضلة من طعام، فلم نأكل، ولم ينم أحد منا.

إنما فكرنا لبرهة بأمر زوجاتنا وأولادنا، إن كانوا قلقوا علينا، بعد أن غبنا عنهم في رحلة القنص نهارين وليلتين، ولم نكن نريد الغياب عنهم أكثر من نهار. وتساءلنا: إن كانوا سيغفرون لنا عودتنا إليهم على هذه الحال. وتمنينا أن لا يكونوا أوقدوا ناراً للشواء في انتظارنا.

وبقينا على هذه الحال، طوال الليل.

وعند الفجر، قمنا، فسوينا جثة سابعنا على النعش الذي أعددناه، وعلّقنا بنادقنا على أكتافنا، ومشينا عائدين، ونحن نتبادل حمل النعش من زواياه الأربعة.. إلى أن خرجنا من المنطقة الوعرة، مخلّفين صخورها وآثارها وراءنا.

عندما اقتربنا، من البيت الذي أودعنا فيه النساء والأبناء، أخذ القلق يساورنا: إن كانوا سيقبلون بعودتنا من القنص هكذا، وقد منيناهم بالصيد الوفير.

لم يتساءل أحد منا، ونحن نحمل النعش: إن كان كره سابعنا للقنص هو الذي دفعه إلى الخروج معنا في رحلة القنص هذه، أو إن كان كرهه للقنص هو الذي منعه من الزواج والإنجاب... فحمدنا الله أنه لم يترك وراءه من يحزن عليه، أو يفتقده في غيابه.

خرجنا سبعة رجال إلى القنص.. وعدنا ستة رجال من القنص. وما عدنا بصيد، بل بجثة سابعنا.

وكانت خطواتنا، كلما اقتربنا من نهاية الرحلة، تثقل، وهمتنا تنهّد، إذ وقعنا في ربكة من أمرنا: كيف سنفترق بعد أن ندفن سابعنا، من دون أن نعرف من هو منا!

كنّا ننام، أنا وأخي هابيل، في العراء.

وجدنا ذات نهار، أرضاً ترابها محمّر ورطب، فسوينّا فيها مكاناً للنوم.

وكانت النباتات تنمو من حولنا، والشمس تمر من فوقنا، ويعبر بنا الهواء،

وفي وقت القيلولة، وفي ساعات النوم، كنا نستلقي متساندي الرأسين، ويضع كل منا ساعده تحت رأس أخيه.

إلى أن سمعت في فجر ندي، هاتفاً في النوم يهتف بي؛

«قايين.. قم إلى أخيك فاقتله..»

فتحت عيني، ونظرت حولي، وإلى السماء.

كانت النجوم تتوامض، ثم أخذت تذوي.

فسحبت ساعدي من تحت رأس أخي، وحركتها لتستعيد طواعيتها، وقمت إلى أخي لأقتله.

فوجدت أنه قد مات بمشيئة الرب.

فحزنت حزناً كبيراً، ورحت أنتظر إلى أن يأمرني الهاتف بدفنه.

غير أن السكون صار عميقاً، ولا من صوت يهتف بي.

فقلت: «ها إن أخي هابيل مات، وها إني حزين لفقده.»

ونهضت لأدفنه، ونظرت إلى الأرض من حولي.

كانت نباتاتها قد تطاولت، وكانت واسعة ومترامية الأطراف. وكان بي شوق أن أطوّف فيها.

فقلت: «لا أقدر أن أدفن أخي هنا، إذ سأظل عندها جالساً بجانب قبره.»

وفكرت، أطوّف بالدنيا، وأبحث له عن قبر.

فحملت جثة أخي، وصرت أطوف بالدنيا.

وكانت أشواقي تغطي الأرض، ولكنها لا تصل بين خطوتي وخطوتي التالية. فكنت أقعد بين كل خطوتين، وأغرس أصابعي في التراب، وحين يكون التراب لدناً أقول:

«هذا قبر أخي، أدفنه، وأطوف بالدنيا، وأحمل إلى قبره الزهور..»

ولكنني قبل أن أبدأ الحفر، كنت أحمل جثة أخي، وأتابع المسير.

وكانت الأرض خالية من الإنس، إنما فيها نباتات كثيرة يانعة، وفي السماء نجوم كثيرة لامعة.

فكنت أقطف من نباتات الأرض، وأغتبط بنجوم السماء، وأطوي العمر، وجثة أخي على ظهري، أطوي بها الأرض.

حتى بلغ بي التعب كل مبلغ، فقعدت في مكان ظليل.

وحين غرست أصابعي في التراب، وجدته ليناً، ودافئاً، فقلت: «هنا أدفن جثة أخي، وآتيه من كل الجهات بأزهار، فيرتاح وترضى روحه.»

ورحت أحفر بهمة ونشاط، حتى سويت له قبراً عميقاً ومتسعاً في التراب الدافئ.

وحين أنهيت حفر القبر، سمعت الهاتف يهتف بي:

«ماذا تفعل؟»

نظرت حولي وإلى السماء، وقلت:

«أدفن جثة أخي الذي مات بمشيئة الرب، لترتاح روحه.»

فهتف الهاتف بصوت مختلف:

«قايين.. أين أخوك!»

قلت: «ها هي جثته على ظهري، حملتها، وطفت بها العمر، والدنيا، وما تعبت ولا ضقت بها.»

وحين مددت يدي لإنزال الجثة، لم أجد سوى بضعة عظام يابسة.

فحزنت، وقلت: «لقد تساقطت عظام أخي على دروبي.»

ورحت أركض في كل الاتجاهات، وأقول: «ما زالت في العمر بقية، أجمع فيها عظام أخي.»

إلاّ أن ذاكرتي صارت متعبة، وهمتي صارت كليلة،

فأصابني خوف كبير من أن أضيّع المكان الذي حفرت فيه القبر.

هذا الصباح، علمتُ لأول مرة، بموتي..
لم أعلم به من وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، فأنا إنسان نكرة لا تذكره وسائل الإعلام الرسمية والأهلية في حياته ولا تذكره بموته، ولا عن طريق النعي، فليس هناك من ينعاني، ولا من يرثيني.
إنما علمت بموتي، حين نظرت زوجتي في وجهي، وقالت بهدوء: «أنت إنسان ميت.»
وقبل أن استفسرها عن حالة موتي التي ظننتها مفاجئة، حدّقت في عيني، وأضافت: «منذ سنوات وأنا أعيش مع إنسان ميت.»
فتيقنت من أنني ميت منذ زمن، وأن ما تمّ هذا الصباح، هو كشف عن حالة قائمة.
وإذ كنت أؤمن بأن إكرام الميت دفنه، وأن ما من أحد سيقوم بهذه المهمة المكربة، فقد هيأت نفسي لها.
حلقت ذقني، وارتديت ملابس زاهية أنيقة، كنت ادخرتها طوال حياتي، لهذه المناسبة الجليلة، واتجهت إلى الباب.
على الباب، سألتني زوجتي: «إلى أين؟»
قلت: «سأخرج للبحث عن قبر».
ربتت على كتفي مشجعة.. إلاّ أنها فجأة، أمسكت بذراعي، واستوقفتني، وراحت تحدّق بملابسي.
سألتها عن الأمر، فقالت: «أنت لم تحترم الحياة. وها أنت لا تحترم الموت.»
قلت: «تعرفين.. أنني..»
فقاطعتني بحدّة: «الميت لا يرتدي هذه الملابس، بل يرتدي كفناً.»
قلت: «معك حق». ورفعت أمامها كيساً كنت أحمله، وأوضحت معتذراً: «الكفن معي في هذا الكيس. لكنني لا أريد أن أرتديه قبل أن أجد القبر.. إذ لا أحب أن يعرف الناس بموتي قبل الدفن، ولا أحب أن أزعجهم بمنظري سائراً في كفن. عندما أجد القبر، سأحفره، وأبدّل ملابسي، وأتمدد فيه، وأنام.»
سرّت زوجتي مني، لأنني ما زلت، رغم موتي، أراعي مشاعر الأحياء. وقبلتني على جبيني، وأوصتني بأن أجد قبراً قريباً، سهل المسالك، ليسهل عليها وعلى أبنائنا زيارته في الأعياد.
هززت رأسي، وخرجت.
مشيت في طرق مغمورة بضوء شمس النهار، تتماوج فيها وجوه ريّقة طافحة بالبِشر، وأجساد لدنة مفعمة بالحيوية.
ولم أدهش، إذ لم يأبه أحد بي في مروري.
ولم أحسدهم على حياتهم، ولا هم حسدوني على موتي.
قضيت طوال النهار، في البحث عن قبر، ولم أتكدّر لفشلي في العثور عليه، إذ أقنعت نفسي بأنني، وإن كنت مستعجلاً الموت، فلست مستعجلاً الدفن، ورحت أتعزّى بالتفكير، بأن الكرامة الحقيقية للميت، ليست في دفنه، بل في سعيه الدؤوب، وبحثه المتواصل عن قبره.
وهكذا اضطررت للعودة إلى البيت، عند المغيب.
إستقبلتني زوجتي على الباب، وسألتني: لماذا رجعت؟.
أجبت: «لم أجد قبراً مناسباً..»
سألتْ: «وما هو المناسب لرجل ميت؟!»
قلت: «الحقيقة أنني لم أجد قبراً على الإطلاق..»، وأضفت: «سأُضطر للبقاء هنا.»
صرخت: «لا. أرجوك. لا تحوّل هذا البيت إلى قبر.»
قلت: «بالتأكيد، لن أفعل. سأبقى حتى الصباح.. وغداً أعاود البحث، وأرجو الله أن يوفقني..»
قالت: «وماذا أفعل إن جاء الأصدقاء الليلة لتعزيتي بموتك؟»
فحيرني الأمر، ولم أدر بماذا أجيب.. إلى أن هداني تفكيري، إلى القول: «سأتكوّم هنا في الزاوية، فلا يحسوا بي.»
هزت رأسها بنزق، وقالت: «لا. لا أريد أن يجدوا في البيت رجلاً ميتاً، فتتكدر أمسيتهم. لا أريد أن يكون العزاء طقساً للموت، بل احتفالاً بالحياة. فكلما مات أحد يجب أن يذكّرنا موته، بأننا ما زلنا أحياء. هذه هي جوهرة الحكمة الأبدية.»
وكان المساء قد أظلم، فقلت: «لا أستطيع أن أجد في الليل قبراً، فشلت في العثور عليه في النهار.»
قالت: «طبعاً. الليل للحياة، وليس كالنهار، للموت.»
وسررنا معاً، إذ اتفقنا، بعد موتي، على هذا الأمر؛ ونفذت عبر انشراحنا إلى سؤالها: «طيب. وماذا أفعل الليلة!.»
قالت: «عليك أن تكون منشرحاً مبتهجاً، إذا جاء الأصدقاء للتعزية بك.»
قلت بدهشة: «لكنني رجل ميت. كيف أكون مبتهجاً ومنشرحاً في موتي؟!»
ابتسمت ابتسامة عذبة ريّقة، وهمست: «أرجوك. حاول من أجلي، ومن أجل أصدقائنا. ألا تحبني، وتحبهم! فلماذا تكدّر علينا ليلة العزاء بك. لا تكن أنانياً. ثم إنك لن تخسر شيئاً، فأنت ميت.»
وكانت الفكرة مقنعة، فانزويت في مكان من البيت، أتدرب فيه على الانشراح والبهجة في حالة الموت.
إلى أن فوجئت برهط من الأصدقاء يدخلون.
وكانت زوجتي، تقف لتقبل التعازي،
فلبثت في الزاوية، مفتر الثغر عن ابتسامة عريضة مرحبة بهم، إلاّ أنهم، لم يكترثوا بي، إلاّ حين يرمقني أحدهم بنظرة عجلى، ويشيح عني ليسأل: «منذ متى وهو ميت!»
فتجيب بضيق: «منذ الأزل، إلى الأبد.. لكنني اليوم اضطررت لمواجهته بالحقيقة.»
ولو لم تكشف زوجتي للأصدقاء عن هذا السر، لما أدركت أن للأزل بداية، وأن للأبد نهاية.. على خلاف ما هو شائع عنهما.
لبثت طوال الليل في زاويتي، أنظر إلى المعزّين، ولا أراهم، وأنصت إليهم، ولا أسمعهم.. وما فاجأني شيء مما جرى، إذ لم أعرف إن كانت هذه ليلة عزاء بموت، أم احتفاء بحياة. فقد كانت مشابهة لكل ما مرّ بي من ليال خلال سنوات موتي الطويلة، قبل أن يتكشّف لي في صباح هذا اليوم.
وما أن طلع الصباح، حتى دخلت زوجتي إلى غرفتنا، لتهجع فيها، على الحد الرهيف الذي أقمناه بين الموت والحياة، بعد أن خرج الأصدقاء المعزون إلى بيوتهم، مبتهجين باستمرارهم في الحياة، وخرجت لمتابعة البحث، مبتهجاً باستمراري في الموت.
ولأنني كنت على يقين هذه المرة، بأنني سأجد القبر، لبست قبل خروجي الكفن..
ولم يدهشني؛ أن الذين لم يأبهوا لي في مروري بهم بملابس الموت المموهة بالأمس، لم يكترثوا لي في مروري بهم بملابس الموت الحقيقية اليوم.. فقد كنت منشغل البصر والفكر في البحث عن القبر، إلى أن وجدته أخيراً في ظاهر البلدة، في منطقة بعيدة، وعرة المسالك.
ولم أعجب، أنني وجدته محفوراً، جاهزاً لاستقبالي؛ فنزلت فيه، وتمددت، وأغمضت عيني.. فلم أر من الذي أهال التراب فوقي.
بل أحسست بنشوة طلقة، لأنني أخيراً مت موتاً حقيقياً، وكاملاً.
وخفت على نشوتي أن تنضب مع الأيام، إلاّ أنها ظلت تتصاعد إلى أن بلغت ذروتها، في فجر أول عيد بعد دفني، حين سمعت عند حافة القبر أصوات أبنائي، وقد جاءت بهم زوجتي لزيارتي، وشممت رائحة زهور ندية وضعت حديثاً على القبر.
فأصغيت إلى إبنتي تسأل: «أمي.. كيف مات أبي؟.»
وإلى زوجتي تجيب: «أبوك لم يمت يا حبيبتي.. إنه حي بيننا».
وأصغيت إلى إبني يسأل: «أمي.. متى مات أبي؟.»
وإلى زوجتي تجيب: «أبوك لم يمت يا حبيبي.. إنه حي بيننا».
فارتاحت روحي، لأن أبنائي عرفوا بأنني حي بينهم، ولم يسألوا؛ لماذا، إذن نزور هذا القبر!. إذ سمعت وقع خطواتهم على حصى الطريق الوعر مبتعدة عن القبر.
فحمدت الله، على أنني ما زلت حياً بينهم، كما أكّدت زوجتي لأبنائي،
وزحفت إلى زاوية القبر، تكومت فيها..
ورحت أبكي من الفرح.



قدّمت نفسي إلى حارس العمارة، بهذا الإيجاز: «اسمي، جمال توفيق أبو حمدان، أكتب قصصاً قصيرة و طويلة، ومسرحيات، تدور حول الموت».

وكان الرجل يتفحّص هندامي، فظننت أنه منشغل به عما أقول، إلى أن هتف بي بحماس: «إذن، فهذا المكان يناسبك. وهو مفروش بفرش فاخر، ولا ينقصك (إذا تم النصيب)، إلاّ أن تحضر كفناً. لا يمكننا تجهيز القبر بكفن، دون أن نعرف مقاس الميت الذي سيكون من نصيبه. ولأنك كاتب، فيمكنك إحضار أوراق وأقلام، فالمكان فسيح وحسن الإضاءة، وجيد التهوية، ومجهز بكل ما يلزمك. ولحسن المصادفة أن غرفة المكتبة معتنى بها جيداً، فالمكتب من خشب الورد، والكرسي الدوار وثير ومريح. لكن لا توجد مقاعد للزوار، إذ نشك بأن يقوم أحد بزيارة ساكن ميت. أما غرفة النوم، فلا أقدر بلغتي البسيطة أن أصفها، وأنت ككاتب، أقدر مني على وصفها حين تراها، أما المطبخ..»

قاطعته قائلاً: «لا حاجة للوصف، ما دمت سأرى المكان».

هزّ رأسه بنعم، وأكمل: «فالأماكن الأخرى، كلها شقق مفروشة، لسكن الأحياء، وهي مؤجرة بكاملها. أما القبر، فبقي فارغاً، ولم يؤجر منذ بناء العمارة».

تبدّت الدهشة على وجهي، فبادرني: «ليس غريباً، بل الغريب أن يأتي أحدٌ معترفاً بموته لاستئجار هذا القبر. ومعظم السكّان، لا يعترفون بأنهم أموات، ويصرّون على التشبّث بهذه الحياة، ويشغلون بها شققاً، هي أيضاً فاخرة الأثاث، وينعمون بها. أنت أول من أتى معترفاً بموته لإشغال القبر الوحيد في العمارة، وأرجو أن تستمتع به. أعتقد أن الكثيرين من السكّان سيحسدونك عليه، فاهنأ به، وأرجو أن تعيش فيه موتاً مديداً وسعيداً».

هززت رأسي شاكراً: إذن، اتفقنا.

وهممت بالتحرّك: «سأذهب لإحضار حاجياتي، أقصد الكفن، وطبعاً الأوراق والقلم، فلديّ قصة أجبرتني زوجتي على كتابتها، بعنوان «موت الرجل الميت»، ولم أتمّها في حياتي، وأرجو أن يتيح لي هذا القبر الذي أبدعت في وصفه، أن أتمها بشكل يرضي زوجتي، وأترك شيئاً لأبنائي يذكروني به، ويفخرون بأبوتي لهم».

إلاّ أن الرجل استمهلني، قائلاً: «هنالك أمر لم نسوه بعد، ولم نتفق عليه».

حدّقت فيه متسائلاً فأكمل: «موضوع الإيجار وطريقة دفعه».

قلت: «أنا على استعداد، لما تراه مناسباً».

قال الرجل: «نحن نأخذ من سكان الشقق الأحياء إيجاراً سنوياً، أو شهرياً، لكن هذا القبر يختلف فالأحياء قادرون على التخطيط لمستقبلهم، وضمان هذا المستقبل، ولهذا نمهلهم. أما بالنسبة لساكن ميّت، فنتقاضى الإيجار يوماً بيوم. فأنت أعرف من غيرك أن الميت ينسى أمسه، ولا يضمن غده، وليس له إلاّ يومه».

أقنعتني حكمة الرجل، فوافقته على هذا الترتيب، والذي وجدته مناسباً لي؛ إذ لا أريد أن أحمّل نفسي ديوناً في موت هانئ، وأريد أن أتفرّغ لكتابة القصة، دون أن تشغلني الأمور المادية، ويحسن بالميّت، أن يكون بريء الذمة تجاه الأحياء.

وكأنما أدرك الرجل ما أفكّر فيه، فبشّ في وجهي، ومدّ يده إلى حلقة مفاتيح معلّقة بزنارة، واختار مفتاحاً مذهباً، قدّمه إليّ وقال: «هذا مفتاح القبر، مبروك، وأرجو أن تكون عتبته خيراً عليك، وأن تجد فيه الموت الهانيء وراحة البال».

وقبل أن أتناول المفتاح، أكمل: «حين تأتي للسكن، قد لا تجدني هنا، فسكان الشقق المفروشة الأحياء، منغمسون بالحياة، منهمكون بشؤونها، ولا يدعون لي وقتاً للراحة، طلباتهم كثيرة، وعليّ أن ألبيها لهم طوال الوقت».

كان الرجل متدفقاً بحديثه الأنيس، وهو يمسك بالمفتاح، وقبل أن أتناوله من يده، سألته: «لكن، كيف أصل إلى القبر؟ فأنا لا أعرف موقعه من هذه العمارة».

تدفّق الرجل مرة ثانية بحماس: «أ. صحيح. القبر يقع في قلب العمارة تماماً، إنه منها في موضع القلب من جسد الإنسان، ويمكنك أن تصل إليه إن كنت ميتاً نشيطاً ورياضياً، عن طريق السلالم، أو باستعمال المصعد».

ولم ترقني فكرة استخدام المصعد، إذ ستلزمني بلقاء أحياء لا أعرفهم، ولا مجال للتعرّف عليهم، فاخترت السلالم.

تناولت المفتاح، وقبل أن أشرع بالحركة، استوقفني الرجل ثانية: «أ. هنالك أمر لم أخبرك به، وتقتضي الصراحة والصدق أن أعلمك به».

وقفت مصغياً، فأكمل: «القبر يقع في قلب العمارة، بل هو قلب العمارة، كما قلت لك. لكن جميع نوافذ وأبواب ومطلات الشقق الأخرى تنفتح عليه، السفلية، والعلوية، والجانبية. ونسيت أن أقول لك أن نوافذ القبر بدون ستائر، فأنت ستكون طوال الوقت مكشوفاً لسكّان الشقق الأحياء».

صعقت، وحملقت فيه، ثمّ هتفت: «ألا أستطيع أن أهنأ في موتي بخصوصية، افتقدتها في حياتي!».

هزّ الرجل رأسه متفهماً مطلبي، لكنه استطرد موضحاً: «هذا هو الوضع، ويمكن تخفيض الإيجار لوجود هذا النقص، كما قد يخفّض الإيجار، لصدقك واعترافك بموتك، لكن ما باليد حيلة، ربما كان هذا خطأ مالك العمارة، أو مهندسها، أو بناتها، في جعل القبر في هذا الموضع منها، وإشراف الشقق الأخرى عليه، لكني أطمئنك؛ جميع السكان الأحياء في هذه العمارة بسطاء، وغير مؤذيين، ولا مزعجين. لكنني لا أضمن لك أن لا يراقبوا حركاتك وسكناتك، من قبيل الفضول، ليس إلاّ، فليس من السهل تفويت فرصة مراقبة إنسان ميّت من قبل الأحياء، أرجو أن تقدّر الوضع، وتتفهمه؛ فأنت خبرت الحياة، وشبعت منها، أما هم فلا يعرفون الموت، ولم يروا من قبل إنساناً ميّتاً يتحرك بينهم، وفي وسطهم. أضمن لك أن لا يزعجوك في موتك».

تمتمت: «أرجو أن لا أزعجهم أنا في حياتهم».

ابتسم الرجل، وقال: «هم الذين سيطلون عليك، ويراقبونك، ولست أنت الذي تراقبهم، تذكّر هذا ولا تحمّل نفسك وزر غيرك، فعليهم هم عاقبة فضولهم».

إرتحت لما قاله الحارس، وهممت بالتحرّك، ولكي أبدو طلقاً منشرحاً، لوّحت بالمفتاح، فالتمع تذهيبه تحت الشمس الساطعة، في هذا النهار الريّق الجميل، الذي اخترته لاستئجار هذا القبر المفروش، والاستقرار فيه، بعد أن أضناني التشرّد في أزقة الموت المغلقة، والتي لم تفض إلى راحة أو دعة.

صمت الحارس، فأطلقني من جاذبية حديثة الآسر.

لكنني في اللحظة التي أردت فيها الحركة، تذكّرت أنني لم أحضر الكفن بعد، أما الأوراق والقلم، فأمرهما يسير، وفكّرت: كيف سأتجوّل في قبري المفروش، والمكشوف، بثيابي وبدون كفن، أمام أنظار سكّان العمارة المطلة عليّ من كل صوب.

وانتابتني الحيرة: هل أحتفظ بالمفتاح، وأنا ذاهب لإحضار الكفن، وأخشى أن لا أجد كفناً ملائماً، فلا أقدر عندها أن أسكن القبر! أم أترك المفتاح لحين إحضار الكفن، وأخشى أن أرجع بكفني فلا أجد الحارس ولا المفتاح، فأكون ميّتاً مكفّناً، لكن دون قبر! وهي حالة لم أجرّبها من قبل.

ولم يخرجني من حيرتي المربكة، إلاّ تدفّق لجة من الأصوات، راحت تحيط بي وتحاصرني.

وما أن انحسرت الأصوات عن أصحابها، حتى أُخذت وبُهتّ، وأنا أتأمّل وجوههم الطافحة ببشر الحياة.

لاحظ حارس العمارة استغراقي في تملّي ملامحهم، ولم يدرك أنني تعرّفت عليهم كلهم، فرحت أغوص في دواخلهم التي تكشّفت لي، فأيقنت أنني أعرفهم؛ ما تبدّى منهم وما خفي، ما ظهر منهم وما بطن.

وانتظرت أن يحادثوني، إلاّ أن أحداً منهم، لم يلتفت إليّ، وتحلّقوا حول حارس العمارة، الذي وقف بيني وبينهم، قائلاً: «إنه المستأجر الجديد، مستأجر القبر المفروش. صحيح أنه ميت، لكن هذا لا يضيره، فقد لمست فيه خصالاً طيّبة، وإنه كاتب».

كدت أقول له؛ هم الذين يعرفون أنني كاتب، لكن عدم اكتراثهم، أخرسني عن كل قول، إذ أيقنت أنهم لم يعرفوني.

وعادوا إلى الإحاطة بالحارس، ومدّوا أيديهم إليه كأنما يستعطونه، فأخرج من وسطه حلقة حديدية كبيرة، معلّقة بها مجموعة من المفاتيح، التي صدئت بمرور الزمن عليها، وراح يضع مفتاحاً في كل يد ممدودة إليه، فيشدّ صاحبها قبضته على مفتاحه، ثم راحوا يتفرّقون باتجاه السلالم والمصاعد.

قبل أن تغيبهم مداخل العمارة عن ناظري، صرخت وراءهم ملتاعاً: «قفوا، انتظروا. أنا منكم وإليكم، ألا تعرفونني!».

فلم يلتفت إليّ أحد منهم، واختفوا داخل العمارة.

أحسست أنني أنتحب في داخلي، وكادت الدموع تطفر من عيني، فرثى لحالي حارس العمارة، ووضع يده على كتفي معزّياً، فحشرجت: «قد أنكروني».

قال: «لم يعرفوك، لكي ينكروك».

قلت: «كيف! أنا الذي أوجدتهم، رسمت ملامحهم، وحيواتهم. أعطيتهم أسماء وصفات، أنا الذي أوجدتهم، فكيف أنكروني، ولم يعرفوني».

قال: «ربما لأنهم أحياء، ولأنك ميت».

قلت بصوت متلجلج: «ما كان موتي لولا حياتهم، وما كانت حياتهم لولا..».

وهنا صمتُ، ولم أقدر أن أكمل.

وأراد الحارس أن يخرجني من الحرج الذي أربكني، فقال: «يمكنك الآن أن تهجع إلى قبرك المفروش، وأرجو أن تجد فيه الراحة والعزاء الجميل».

قلت: «لكني لم أحضر كفني بعد!».

قال: «لا تتعلّق بالمظاهر، فزمن موتك سيعرّيك حتى منه».

قلت: «ولم أحضربعد، ورقاً وقلماً، لأكمل قصة موت الرجل الميت، التي وعدت بها زوجتي وأبنائي، وعليّ أن أتمها لتخلد من بعدي».

قال: «تقدر أن تحفر قصتك على جدران قبرك، فهي ناصعة بيضاء، وهذا المفتاح رغم أنه مذهّب، فإنه قادر برأسه المدبب على الحفر، ولا تخشَ على الجدران، فلن يسكن هذا القبر أحد بعدك».

أراحني الرجل بكل ما قال، فأحسست بهمة قوية للحركة، وركضت إلى مدخل العمارة، وقلت ربما أستطعت أن ألحق بهم، قبل أن تغيبهم مساكنهم، فيعرفوني.

كان سكان العمارة، قد اجتازوا السلالم والمصاعد، وتفرّقوا في أروقة العمارة وممراتها، فرحت أركض وراءهم، وما أن أصل إلى الباب، حتى يغيب صاحبه وراءه، وينغلق عليه، دون أن أتمكّن من محادثته، وما أن أُغلقت كل أبواب المساكن في العمارة دوني، حتى وجدت نفسي داخل القبر الذي استأجرته.

ابتأست، ورحت أجيل النظر فيه، لكني كنت مهجوساً بإكمال قصتي، وتذكّرت أن الحارس أخبرني، بأن جميع أبواب ونوافذ وكوى وشرفات ومطلات شقق الأحياء، مشرعة على قبري، وأنهم سيراقبوني منها، فتعزّيت، وأنعشتني الفكرة.

ورحت أخطّ بمفتاح القبر، كلمات قصتي الأخيرة.

وبين كل عبارة وعبارة، كنت أتوقف وأنتظر طلّتهم عليّ، إلاّ أن أحداً لم يطل.

فتشتت تفكيري، وانشغلت بهم عن كتابتي، وصرت أذهب إلى نوافذ قبري أطلّ منها، لعلّي أرى أحداً يراقبني، فتأنس روحي به، فما وجدت أحداً.

وأخذ الحنق يتصاعد حتى سدّ عليّ كل منافذ النفس، ولم يبقَ إلاّ صوتي فصرخت: «أرجوكم، أتوسّل إليكم، أطلّوا عليّ، راقبوني، أنظروا إليّ، أنا الذي..»

وهنا صمتُّ، إذ لم أكن قد اعتدت فضيلة التفاخر.

وعدت إلى الجدار، وعاودت الإنهماك في الكتابة عليه حفراً بالمفتاح، حتى أنهيت قصتي الخالدة، موت الرجل الميت، فأسقطت المفتاح من يدي وابتعدت عن الحائط.

وحوّلت نظري إلى فتحات قبري، لعلّي أرى أحداً ينظر إليّ، ففجعت بأن وجدت كل النوافذ والمطلات مسدودة تماماً.

قلت ربما أزعجهم صراخي وصوتي، وما كان عليّ أن أتصرّف هكذا، فلا يليق برجل ميّت أن يرفع صوته على الأحياء.

ولم تغوني فكرة؛ أنني أنا الذي أعطيتهم الحياة، فتعزّيت بأنني أوجدتهم على ورق رقيق، فأوجدوني على هذا الجدار الصلد، فجلست قبالة الجدار، ورحت أراجع قصتي، التي أُنجزت أخيراً، وحاولت أن أتناسى أمر السكّان الأحياء، وإن ظلّ في نفسي تشه هش، لأن أسمع صوتاً أو نأمة، بعد أن يئست من رؤية شكل أو ملمح، فقلت؛ عليّ الآن أن أستمتع بموتي في هذا المكان الطيّب، المريح.

مرّ الليل ريّقاً ومؤنساً، وكنت أنتظر طلّة الفجر، إذ ستكون تجربة فريدة لي؛ أن أشهد إطلالة الفجر من نافذة القبر، وكنت قد أحببت إطلالاته طوال حياتي.

لكن الفجر، لم يطل عليّ، ولم أقدر أن أطل عليه، إذ حين قمت إلى النافذة، وجدتها مسدودة تماماً، مثلما سدّت كل نوافذ العمارة، وأبوابها ومطلاتها بشكل محكم.

ولم يعد حولي إلاّ هذا الانسداد المصمت.

وأحسست وكأن العمارة، لم تكن قائمة أصلاً، وأن كل ما حول قبري المفروش المستأجر، ليس إلاّ خلاء ممتداً.

ففكرت؛ ربما إن الذين اعتقدت بأني أوجدتهم، لم يوجدوا حقيقة، أما موتي، فحقيقي، وهنا أصابني حرج كبير، حين تذكّرت أنني لم أحضر كفني معي، إذ كيف سأمضي بقية موتي على هذه الحال.

ولم يبقَ من زمني، إلاّ وقت، لأسأل؛ أأنا الحيّ الوحيد، وكلّهم أموات في موتي، أم كنت الميّت الوحيد وكلّهم أحياء في حياتي!

ولم يمهلني عمر موتي، لأعرف الجواب.

انتظرنا عودة أخي الأكبر لأجيال طويلة.

وفي يوم لم نتوقعه فيه، دخل البيت لاهثاً، كأنما هناك من يطارده.

كان يحمل حسوناً.

وكان يربط جناح الحسون بخيط معقود طرفه الآخر إلى إبهامه.

وكان الحسّون يتدلى من الخيط ساكناً.

وحين سمع هياجنا، حاول أن يرفرف بجناحيه حولنا، إلاّ أن أخي ضربه على رأسه، فأعاده إلى هدئه.

انتصب أبي على قدميه، وكان الهم والانتظار قد أقعداه زمناً، أما الآن فقد نهض وسار نحو أخي الأكبر وقبّله، فكررنا نحن وراءه نقبّل العائد.

وحين رجعنا إلى أماكننا، مشى الأخ حتى منتصف الغرفة، وأشار إلى الحسّون مبتسماً وقال: «لم يكن من اللائق العودة إلى البيت، بعد هذا الزمن، بيد فارغة.»

فقال أبي: «لكن، يا بني، لا لزوم لذلك. أنت تعرف أنه لا يوجد عندنا قفص. ثم أن فرحتنا بعودتك تكفينا.».

هنا اقتربت أختي لتلمس الحسون، غير أن أخي رفعه بعنف، فسألت؛ «هل يغرّد؟»

نظر الحسّون إلى أختي، فردّ أخي الأكبر:

«أنه لا يغرّد».

ثم أكمل: «لم أحضره لنضعه في قفص. أحضرته لعشاء العائلة.»

انتفض أبي وقال: «نحن لا نأكل لحم العصافير..»

فردّ أخي: «ما دام لا يغرّد فما نفعه.»

قال أبي: «لكنه صغير..»

أجاب الأخ: «سيكون عشاء رمزياً.»

وأخرج من جيبه سكيناً ذات نصل حاد لامع.

وحين حزّ عنق الطائر، صاح هذا صيحة مريعة، دون أن يقطر منه دمّ.

غطّى أبي وجهه براحتيه، وفكّر؛ كيف حَوَّل الغياب ابنه الأكبر إلى هذه القسوة.

وكذلك فكّرنا جميعاً.

وحينما أزحنا أكفنا عن أعيننا، وجدنا أن الأخ قد أوقد شموعاً على طاولة كبيرة، ووضع الحسّون في وسطها، ثم دعانا إلى العشاء.

أحطنا به، فراح ينزع اللحم عن العظام الدقيقة، ويوزّعه علينا.

وكان لحم الحسون مرّاً، إلاّ أننا خشينا أن نشير إلى ذلك، فنجرح شعور أخي بعد غيابه الطويل.

ولم نكن نتكلّم، غير أن الأخ الأكبر توقف فجأة، وراح يودّعنا بكلام طويل مؤثر، حتى اغرورقت عينا أبي بالدموع.

فقلنا: «لا لزوم لمثل هذا الكلام.».

أجال الأخ عينين حادتين بيننا، وقال: «بلى، لأن أحدكم سيخرج ليشي بي بعد انتهاء العشاء»

وذكّرنا بالعشاء السري.

فتأثرنا، وأقسمنا له أن هذا لا يخطر لنا على بال.

فقال: «لا بدّ أن يشي بي أحدكم.» دون أن يشير إلى أحد.

وكنا قد توقفنا عن مضغ الطعام، ولم يبق من الحسّون سوى عظامه الدقيقة المبعثرة على سطح الطاولة.

فقال أخي الأكبر: «على أية حال، رأينا بعضنا أخيراً، ولا يهمني ما سيكون مصيري..»

فتأثرنا جميعاً، وقمنا إلى أخي وغمرناه بالقبلات.

ثم أحطنا به.

ولم تكن لديه حكايات مسلية، فأطبق علينا الصمت.

وبعد قليل أغفى من تعب تجواله، فلبثنا جالسين حوله. وكنا متعبين، فلم يغادر أحد مكانه ليشي بأحد.

وفي الصباح استيقظنا من حول أخي، وكان أبي أكثرنا تعباً، إذ ظلّ يرنو إلى أخي من مكانه، طوال الليل.

ثم نهض الأخ وقال: «لم أتوقع هذا!. هل بقيتم هنا؟.»

وبرغم أنه نام عميقاً، إلاّ أنه بدا متعباً إلى أقصى حدّ، ثم راح يتفرّس في كل الأرجاء، ويحدّق عبر الأبواب.

وقد حزن حزناً كبيراً، حين تيقّن من عدم وجود أحد من مطارديه ليقتاده.

مشى نحو الطاولة، وقال: «إذن عليّ أن أرحل الآن.» ثم تنهّد وأكمل: «كنت أتمنى أن ينتهي كل هذا..»

وراح يجمع عظام الحسون المبعثرة، في كفه.

وكانت يداه واهنتين، فوجد صعوبة في جمع العظام، وضم قبضته عليها.

ثم مشى نحو الباب.

وحين حاول أبي أن يلحق به ليودعه، كانت قدماه قد تيبستا، وذلك بسبب ثقل الوداع عليه.

حاولنا أن نُبقي أخانا معنا، إلاّ أنه نظر إلينا طويلاً ثم لوّح بيده، وخرج.

وحين ابتعد وغاب، اجتاحنا خوف عظيم من أن تتساقط عظام الحسون من يده على الطريق، فيلاحقونه، ويهتدون إليه.

فاكتأبنا طوال النهار.

وفي اليوم التالي بدأنا ننتظره من جديد.

سأبدأ بوصف الطفل الذي سيكون بطلاً رمزياً لهذه القصة. ثم أصف بعد ذلك الساحة (المكان) حيث وقعت أحداث القصة، والبيئة المحيطة بها. وسأجهد أن أجعله وصفاً واقعياً بالقدر الممكن في الولوغ في عب الواقع، الذي يبدو أحياناً أكثر غرابة من الخيال.

أما وقائع القصة، فلا فضل لي في سردها، إذ ستتدفق تلقائياً من ذاتها، وتتوالد أحداثها، لتصب في الزمان الذي اتفق على تسميته بيوم الغبار.. وهو يوم وقوع الحادث:

كان الطفل الذي وُجد منذ زمن بين الخرائب المحيطة بالساحة، مجهول الأب مجهول الأم.. فقد انبثق هناك ذات يوم، هكذا، كالفطر البري.

وكان طفلاً عجائبياً، كثير الدهشة، تنفتح عيناه على اتساع الأحداق، ثم تنوسان بالألفة، وتغفوان على المحبة.. إن وجد من يبادله المحبة.

وكان يبدو للآخرين كالمهر البري.

ولم يكن له مكان ثابت معروف يأوي إليه في الليل. أما في النهار، فما كان يهدأ في موضع، وكأن كل الأماكن ملكه، مباحة لمرحه الذي لا ينضب.

وكان قادراً، بخياله الطلق، على امتلاك الأرض، وما فوقها من شموس وأقمار ونجوم.

حتى كان يوم، ابتعد فيه عن الحي، إلى حي آخر غريب، فوجد هناك لعبة، كانت من فائض ما لدى أطفال الحي الآخر، رموها بملل، فالتقطها بغبطة وتشبّث بها.. فهي أول شيء محسوس ملموس يمتلكه في عمره الصغير، غير ثيابه الرثة، وهي أيضاً من فائض ما لدى أطفال الحي الفقير.

وما أن أحس بمتعة امتلاك اللعبة، حتى تبدّلت حاله، فلم يعد يغادر الحي، صار يمضي وقته كله يلهو بلعبته في الساحة.

وصارت الساحة بالنسبة إليه، واسعة مترامية الأطراف، وكأن حدود الدنيا، تنتهي عند حدودها.

وهي ساحة ترابية، وعرة، ملأى بالحجارة والأشواك، تتوسط الحي. وصارت على تتالي الأعوام مكباً للانقاض، ومخلفات الحياة. ولم يكن لدى أهل الحي المحيط بها، ما يخلفونه وراءهم في مسيرتهم المضنية في الحياة.. فعيشهم ضيق لا يتسع لتساقط شيء منه.

أهل الحي، فقراء. ولولا رحمة الله الواسعة، لقلت أنهم معدمون، يقطنون بيوتاً خربة ضيقة وهرمة ومتداعية، وخششاً تتساند إلى بعضها بوهن. ومظهر بيوتهم يدل على مخبر حياتهم. مكتظون ليلاً في هذه العلب السكنية النخرة، منتشرون نهاراً في الأزقة الرطبة. لوى الزمان عنق حياتهم بانحناءة ذليلة، وقصم ظهر عيشهم، فلا يقوى على حملهم في مسيرة العمر، فيحملون هم أعمارهم وهناً على وهن، وتظل عاقراً عن ولادة أية مسرة أو غبطة. عيونهم كسيرة النظر، ونفوسهم مشروخة، يعشش في شروخها القنوط. يتقاسمون يقظة فزعة في ليل الحي، وذهولاً ذليلاً في نهاره.

حتى كان يوم، أفاقوا فيه على الضجيج والعجيج.

ففي الصباح الباكر من ذلك اليوم، كان الطفل وحده يلهو بلعبته في الساحة، يدحرجها ويركض وراءها على امتداد الساحة طولاً وعرضاً.

كان مغتبطاً باللعبة بين يديه، وبما في نفسه من فرح.. بعد لحظات طلعت أمامه جرافة عملاقة، محاطة بأصوات محركاتها الزاعقة، وزوابع الغبار من حولها.

ارتعد الطفل، وجمد في مكانه.

وكانت لعبته قد تدحرجت بعيداً عنه، فوقف عاجزاً عن اللحاق بها، هلعاً من رؤية الجرافة التي تتقدّم عبر الساحة.

بعد قليل جاءت جرافات أخرى، وشاحنات، ازدحم بها المكان، وراحت تتحرّك ذاهبة آيبة عبر الساحة، تشق الأرض وتقلبها، وتحفر التراب، وتنقله ومعه الأنقاض ومخلفات الحياة المتراكمة.. والطفل جامد في مكانه، عيناه على اللعبة التي صارت في موضع قصي عن متناوله.

وتعالى ضجيج الأصوات، وعجيج الغبار، فأطل أهل الحي من الكوى والنوافذ والأبواب وأفواه الأزقة. وقفوا مشدوهين حائرين في ما يجري على الساحة، ثم استغرقتهم تسلية التلهي بالمشهد الغريب، فلبثوا في أماكنهم ذاهلين.

وعين الطفل، وسط هذا، على مكان اللعبة، حتى اقتربت إحدى الجرافات من الموضع الذي استقرت فيه اللعبة، فغرست شوكتها في الأرض، وقلبت التراب.. فاختفت لعبة الطفل.

هنا شهق الطفل، وصاح «لعبتي» فلم يسمعه أحد.

اندفع لاحقاً بالجرافة التي كانت تفرّغ التراب في الشاحنة. كان يبكي. وكانت عيناه المرغرغتان بالدمع تحجب عنه كل ما حوله في اندفاعته.. إلاّ أن الشاحنة تحرّكت مبتعدة بحمولتها.

وقف الطفل ذاهلاً منتحباً، وحاول أن يصيح في إثرها، إلاّ أن حلقه كان غاصاً بالنحيب، فلم يسمعه أحد، فانتحى زاوية الساحة، وظل يبكي هناك، حتى وقت متأخر من ذلك النهار، ذاهلاً عن صوت الآلات وحركتها وعن الغبار، وحرارة الشمس اللاهبة. ولعبته بعيدة عنه، مدفونة في مكان ما بالتراب.

مع ميلان قرص الشمس عن الساحة، أخذت سحب الغبار تنقشع عنها، وساد المكان هدوء غريب بعد الصخب الغريب، وانكشف المشهد عن ساحة نظيفة، واختفت الجرافات والشاحنات عن أرض منبسطة، فارتدّ أهل الحي إلى الداخل، في رؤوسهم زوابع من الأسئلة، ولا من جواب. وبقي الطفل وحيداً حزيناً لا يلتفت إلى أحد، ولا أحد يلتفت إليه.

حتى صاح صائح بين البيوت، أن اجتمعوا في الساحة، فرئيس البلدية قادم إليكم، يحدّثكم في أمر يهمكم، وفيه خيركم (ولم يكن قد ظهر بينهم من قبل).

تدفق الخلق من بيوتهم وأكواخهم، وهرعوا إلى الساحة، وتجمعوا هناك في كتلة بشرية متراصة، في انتظار إطلالة رئيس البلدية عليهم. وظلوا لابثين هناك دون كلل أو ملل، حتى هلّت طلعة رئيس البلدية، محاطاً بأعضاء المجلس، ورهط من آخرين غير معروفي الصفة لأهل الحي.

شق الجميع طريقهم عبر الساحة، حتى وصلوا إلى كتلة البشر، فانشقّت عن ممر إلى وسط الحشد، عبره الرئيس ومن معه، وتوسطوا الجمع.

كان المشهد محاطاً بالمهابة؛ أجال الرئيس نظرة متفحصة في من حوله، ثم بدأ بالبسملة، وشكر الله على نعمه وعلى توفيقه لهم بأن تمكنوا أخيراً من تجريف الساحة وتنظيفها، بعد زمن الانتظار والتخطيط والدراسات المضنية.

ثم رمى وسط الجمع الصامت، عبارته السحرية: «هل تعرفون، ماذا أعدّت بلديتكم لهذه الساحة!».

صاح الطفل من مكانه القصي: «أريد لعبتي»، فلم يسمعه أحد. قالت واحدة من الجمع بصوت خافت خالٍ من الرنين: «لماذا لا نجعلها ملاعب للأطفال».

فابتهج الأطفال وهاجوا، حتى أحس رئيس البلدية بالخطر المحدق في بهجتهم، فصاح: «لن نربي أطفالنا على اللعب والهزل.. فهذا أوان الجد فاشتدي زيم».

فتعالى التصفيق والهتاف، وترديد منغم لكلمة زيم.

وحين خفت الهياج بما يسمح لصوت أن يُسمع، قال صاحبه: «فلنجعلها إذن مزرعة أو ورشة عمل نعتاش منها..».

فابتهج الكبار، وهاجوا وماجوا.. حتى أحس رئيس البلدية، أن زمام الموقف يكاد يفلت منه، فتقدّم إلى حجر تُرك وسط الساحة، واعتلاه شاحذاً كل أسلحة المنطق التي يملكها، وقال بمنبرية: «بل إن لدي فكرة ثورية.. سنجعل من الساحة منطقة سياحية.»

وصمت الرئيس، فران الصمت على الجميع، إلى أن تساءل واحد من الجمع، كأنه يكلّم نفسه: «أسياحة في هذه البقعة الخربة المحاطة بالبؤس والفقر والجوع!؟».

وما أن سمعه رئيس البلدية، حتى انتصب وقال: «هذه هي الفكرة الثورية لتشجيع السياحة الداخلية. فالسياحة أيها القوم، تقوم أساساً على التناقض والمقارنة. فأهل الحرّ يسوحون إلى مناطق القرّ، وأهل القرّ يسوحون في مناطق الحرّ. وأهل المدر يذهبون للتفرج على أهل الوبر. وأهل الوبر يذهبون للتفرج على أهل المدر. وأهل الشمال ينزلون إلى الجنوب، وأهل الجنوب يرتقون إلى الشمال، ويشرّق الغربيون، ويغرّب الشرقيون. سكان الوديان يتسلقون الجبال سائحين، وسكان الجبال ينزلقون إلى الوديان سائحين. ومن ليس عنده بحر يقصد البحر، ومن ليس عنده وعر يرتاد الوعر. وهكذا حركة دائبة تنشط دور الحياة البشرية».

هنا اقترب رجل غير هيّاب، فوجئ بالجرأة تقتحم عليه نفسه، فوجه سؤالاً مباشراً إلى رئيس البلدية: «وماذا عندنا هنا؟ وكيف تجذب الساحةُ السياحةَ!»

ضحك الرئيس باتساع شدقيه، ثم زمّ فمه، واتخذ هيئة الجد والوقار، وقال: «على المبدأ نفسه، فلديكم هنا حول الساحة، فقر فريد ومميز، وبؤس أصيل ضارب جذوره في أعماق الحياة. وهذا سيجتذب أغنياء البلد ومترفيها الذين لا يعرفون الفقر، ولم يروه، لأن يأتوا إلى هنا للتفرج عليه، فينعم السياح الأغنياء برؤية البؤس والفقر على الطبيعة، فيحمدون الله عز وعلا على ما أسبغه عليهم من نعمة الثراء. ويرى الأصحاء المرضى فيحمدون الله على نعمة الصحة. ويشاهد المتخمون الجوعى، فيتجشأون ويحمدون الله على ما أسبغ عليهم من كنز القناعة الذي لا يفنى، ونعمة الصبر الذي هو مفتاح الفرج. ويقدمون خدمات للسياح، فينعم هؤلاء عليهم بالعطايا، فتزدهر الحسنة في النفوس، ويستمتعون برؤيتهم وهم ينحنون لالتقاطها..

إن السياحة في الساحة أنجح مشاريعنا، وأهم انجازات زماننا، فلنتوكل على الله في إقامة هذا المشروع الحيوي.. ففيه الخير، كل الخير».

هنا، صاح الطفل من بين الجمع، وكان اقترب واندس فيه: «أريد لعبتي..»

لم يكترث له أحد، فاندفع إلى حيث رئيس البلدية، وجذب طرف سترته، وتعلّق بربطة عنقه حتى كاد يسقطه عن الحجر الذي يعتليه وصاح: «أريد لعبتي. أنتم سرقتم لعبتي. أعيدوا إليَّ لعبتي..».

ولم يتمالك الرئيس، الذي أفقده الموقف هيبته ووقاره، إلاّ أن رفع كفاً متشنجة، وأهوى بها على الطفل بصفعة مدوية، كانت إيذاناً لأعضاء المجلس بأن ينهالوا على الطفل بالصفعات والركلات، فانطرح أرضاً بينهم، متأوهاً من الألم.

وقبل أن يتمكن رئيس البلدية، من معاودة الإمساك بزمام الموقف، واصطناع الهيبة، ولملمة شعث وقاره، تقدّمت طفلة من وراء الجمع، ونقفته بحصاة، أصابت وجهه، وقبل أن يتنبه لما حدث أخذت الحجارة الصغيرة تترامى صوبه من أيدي الأطفال الآخرين، بينما الطفل مطروح على الأرض.

وحاول الكبار أن يزجروا الأطفال ويمنعوهم عن فعلهم، إلاّ أنهم لم يقدروا عليهم. فراحت الحجارة الصغيرة تتراشق نحو وسط الجمع. ولم يعد رئيس وأعضاء البلدية وضيوفهم بقادرين على تحاشي الحجارة المنهمرة عليهم، فسيطر الهرج والمرج على الساحة، وتبعثر الجمع، وأخذت الأقدام تتراكض، وشق رئيس المجلس ورفقته الجمع، وابتعدوا مهرولين إلى سياراتهم، وخلفت السيارات وراءها زوبعة من الغبار، ونثار الماء الآسن في أزقة الحي.

وتفرّق أهل الحي عائدين إلى بيوتهم وأكواخهم، ولم يبق في الساحة، غير جسد الطفل مسجى بسكون. وحين تراكض الأطفال إليه لرفعه عن الأرض، كان جثة باردة معفرة بالغبار والتراب، وعليها آثار الأقدام التي داستها في هياجها.

هكذا، انقشع غبار ذلك اليوم، وغابت شمسه عن حي بائس مفجوع بالحياة، في وسطه ساحة فسيحة نظيفة، في ترابها لعبة مدفونة، وجثة طفل مسجاة على سطحها.

وبعد..

لست أدري، إن كان ما رويته هنا، حكاية رمزية عن حدث واقعي، أم حكاية واقعية حول فكرة رمزية.

اختلط عليّ الأمر.

ويسرٌ عليّ مهمة التوقف عن السرد، انه لم يحدث بعد ذلك أمر ذو أهمية.

فالساحة أُهملت من جديد، وعادت إلى ما كانت عليه قبل الجرف والتنظيف، وطوي مشروع السياحة في الساحة، وتراكم الغبار على دراساته ومخططاته، مثلما تراكمت في الساحة الأنقاض ومخلفات الحياة.

كما أن الطفل ووري التراب، فما عادت رائحته تزكم الأنوف، ولا ذكره يقلق النفوس.

وظلّت الشمس تعبر الساحة نهاراً، والقمر يعبرها ليلاً.

ولا أحد يقدر أن يزعم مهما أوتي من جموح الخيال، أنه رأى شمساً وقمراً يلتقيان معاً فوق الساحة، في ليل أو نهار، أو على الخيط الأبيض والخيط الأسود الفاصلين بينهما.



لم يكن خط النار بعيداً عن الموقع الذي تمركز فيه الجند.
وحده الجندي، ذو العلامة الفارقة، يراه بعيداً، حتى استحالة بلوغه.
كانت له علامة فارقة ظاهرة على وجهه، وعلامات فارقة كثيرة خفية، منتشرة في داخله، على غشاء القلب، وعصب الدماغ، وشبكة العين، وجدران النفس.
ومع كل هذه الفوارق، وجد نفسه ذات يوم، بين جنود متمركزين في مواجهة عدو، في صحراء نائية، تحولت إلى ميدان قتال، بعد أن كان كتب عنها قصيدة، اختلط في إيقاعها السراب بالشجن.
كان الجندي قبل اشتعال الحرب، شاعراً.
وصار الشاعر، بعد اشتعال الحرب، جندياً.
وما قدر أن يفصل بينيه عن بعضهما، ولا يعرف أين ينتهي ذاك، وأين يبدأ هذا.
فما من فاصل بين الأشياء الآن، إلاّ خطّ النار، الذي يمتد بين مربضه هنا، ومربض العدو هناك.
ملامح العدو، ليست بينة له، وما قدر على تخيلها، وما تساءل بينه وبين نفسه، عن شكله وجنسه، وكيف امتد هذا العداء عبر خط النار بين الجانبين المتحاربين.
فما شغلته الحرب من قبل، ولا شغله السلم.. إذ لم يدرك سر انشطار زمن الإنسان بينهما.
وما كان في حقيبة الجندي، ذي العلامة الفارقة، التي يحملها على الظهر، غير رصاصات قليلة، وكسرات خبز، وأوراق بعضها أبيض، وبعضها سودته القصائد.
وبين يديه بندقية، قلّما ينتبه إلى حشوها، فيذكرونه بأن على الجندي، أن يظل مستعداً، شاكي السلاح، حتى لو لم يكن هنالك قتال.
في حمّى القتال، يرتعش الجندي، ذو العلامة الفارقة، في مسافة غير مرئية، بين خط النار وغشاء قلبه، وبين الرصاصة الواضحة الهدف وبين النبض الواني الأشواق.. وما عاد يعرف أيهما صدى للآخر، فيجلس، إن قدر على ذلك، بينهما، يكتب على ورقة بيت شعر، أو يخط كلمة بفوهة البندقية على الرمل.
وإذا يسرّت اللحظات المتطايرة، بين اشتعال خط النار وخموده، للجند هجعة راحة، يجلس الجندي، ذو العلامة الفارقة، مع رفاق السلاح، ويضيئون لسمرهم قطعة ليل هاربة، نحو نهار طويل مليء بالهواجس.
وما أن يمسكوا بقطعة الليل، ويأمنونها من خوفها، ويستدفئون بها، حتى تخرج قصائد الجندي، ذي العلامة الفارقة من حقيبته ومن أعماقه، لترفّ على أسماعهم وتحط على قلوبهم، ويتحولون كلهم معه إلى شعراء، يذكرون زوجاتهم، ويحْبون كالأطفال حول ابتسامات متخيلة في نأيهم.
وقد يهمون بالقول ؛ إن كل قطرة دم تنشق كالشرنقة عن كلمة، وأن كل كلمة تغلف كالغشاء قطرة دم.
غير أنهم ينصتون لما يقوله الجندي، ذو العلامة الفارقة، إلى أن يهتف: «كل رصاصة ينمو على غلافها زغب حمامة بيضاء.»
ويصمت، فيحدّقون فيه، ثم ينفضّون من حوله، ويخلّونه لذاته.. وما عاد يلتقي مع ذاته.
فالتراشق عبر خط النار، ما ترك له سكينة أو خلوة، يخط فيها شعراً على ورق.
واكتظت حقيبة ظهره بذخيرة، وقلّت فيها كسرات الخبز، وخلت تماماً من الورق.
وتواصل اشتعال خط النار، فلا يهمد إلاّ في لحظات قليلة عابرة، يرنو أثناءها الجندي، ذو العلامة الفارقة، إلى الفضاء، يراقب سحباً بيضاء، سارحة على السماء الزرقاء.
وما أن يرى لهيباً ودخاناً يتصاعد، ليخالط بياض الأفق، حتى تعتكر نفسه، فيطويها على هذا الاعكار، إلى أن تُصدر القيادة أمراً بإطلاق النار.. فيستقيم وراء بندقيته.
وتفهمت قيادة الميدان نوازع نفسه الغريبة، فما تخوفت منه؛ إن هو إلاّ جندي بين جنود.
إلى أن جاء يوم، تفاقمت فيه حالته.. فإذا بالجندي، ذي العلامة الفارقة، يرى، كلما رنا إلى السماء، حمامة بيضاء تمرق ما بين الطلقة والطلقة، وتسقط محترقة في خط النار.
ولازمته هذه الرؤية، فما عادت تفارقه.. بل فارقته القدرة على التصويب، وضغط زناد البندقية، فصار أمر الجندي، ذي العلامة الفارقة، مقلقاً.
عندها أجمعت القيادة، على أن حالته تستوجب نقله إلى مصحة الميدان، ومعالجته.
وما خافوا منه وحده، فهو فرد في جماعة، إنما الخوف من أن ينقل عدوى هذا الوباء إلى غيره من الجند.. خصوصاً الذين تحلّقوا حوله في ليلة سمر ليستمعوا إلى شعره.
فلا بد من عزله، في مصحة الميدان المتنقلة، التي لم تكن بعيدة عن ساحة القتال. فظلّت تصله أصداء اشتعال النار، إلى أن تأخذه غيبوبة عنها.
وفي أوقات المعالجة الطويلة، صارت ترتفع في داخله أصداء المعركة، فما عاد يقدر على الغيبوبة.. صار قادراً على تخيّل المعركة حين يصفها له الضابط المعالج، الذي كان يلازمه ملازمة جعلته يفقد القدرة على تمييز ليله من نهاره.
إلى أن انتهت معالجته بالنجاح، وصار مهيأ لخوض غمار الحرب،وتأكدت القيادة من جاهزيته، ومن استعداده وشغفه.. فما عاد يتحدّث عن حمامة بيضاء محترقة. وحين أفاق من آخر غيبوبة علاج، سأل عن بندقيته، واطمأن إلى وجودها، وإلى انتسابه إليها.. وسأل إن كانت محشوة.
عند هذه النقطة، صار الجندي، ذو العلامة الفارقة الظاهرة على وجهه، من دون أية علامات فارقة مخبوءة في أعماقه.. فتمت إجراءات اخراجه من عزل المصحة، بكامل عافيته القتالية.
لكن قبل أن يخرج، حدث ما لم يكن مفاجئاً للقيادة، وإن سبّب له مفاجأة صاعقة.
فمع انتهاء المعالجة، وإتمام التأهيل.. أُعلن وقف إطلاق النار، على خط النار، وارتد الجانبان من هجمة الحرب، إلى هجعة السلام.
لم يدرك الجندي، ما الذي يجري من حوله، إلاّ حين أخذ الجند في الانسحاب، وفُككت جدران المصحة المتنقلة من حوله.
حدّق في ما يجري، فقالوا له: «رحلت الحرب.. وحلّ السلام».
سأل: «فماذا أفعل أنا.. الآن؟!»
قالوا: «مثلما يفعل بقية الجند الأحياء. كل الأحياء سيعودون إلى دورهم. ونخلي هذه الصحراء للسراب، ونخلي الجو للحمائم البيضاء.».
قال: «سأبقى هنا.. فما كنت أصلح للحرب، وما عدت أصلح للسلام».
سألوه برقة: «أهذه رغبتك!».
هزّ رأسه، وما أجاب، فتركوه لرغبته.
إرتحل الجند وراء القيادة، وتركوه وراءهم في ساحة حرب انطفأت، فارتدّت صحراءً قاحلة ممتدة.
ظل الجندي، الذي لم يعد جندياً، ولا بقي شاعراً، ومن دون أية علامات فارقة، وحيداً يحدّق أمامه في المدى، فيرى حمامة بيضاء محترقة، معلّقة، غير قادرة على السقوط على خط النار، الذي تحول الآن إلى خط أفق أشهب ساكن ممتد.
ولم يعد يدري ماذا يفعل، إلاّ أن يجلس في مواجهة ذاك الخط الرقيق، يفتح أحداقه عليه، فيرى كيف يفتّق خطُّ الأفق، الأرضَ عن السماء. ويغمض عينيه عنه، فيرى كيف يرتّق خطُّ الأفق، الأرضَ بالسماء.



قطعت طريقاً طويلاً..
لأثبت أن لا أرض ولا ماء ولا حب.
أودن

على مدى الصحراء الواسع، كان الرجل يمد ظلاً. الشمس وراء ظهره، والظل يمتد دقيقاً دونما تشكّل، كحد نصْل على الرمال.

قال الرجل: «لا بد أن الشمس بعيدة ومائلة على الأفق». ونظر إلى النقطة التي ينتهي عندها ظله، فاجتاحته الفرحة في أن يمتد ظله كل هذا الامتداد، ثم فكّر: الوقت مازال مبكراً. فمشى.

كان مقوداً بفكرة مبهمة، يحسها مهوّمة عند النقطة التي تلتقي فيها الصحراء بالأفق. وحاول أن يميّز بين لوني الأفق والصحراء عند تلك النقطة، فلم يستطع، ففكّر ثانية: لن يتجاوز نظري نقطة انتهاء الظل، وإلاّ فقدت قدرتي على التمييز بين الأشياء. وسحب بصره وركّزه أمامه مباشرة، وقال: «لو أسندت البندقية إلى ذراعي في وضع أفقي، فقد تبدو أخف». وعندما نظر أمامه كان ظل البندقية المسندة إلى ذراعيه يبدو ناتئاً ومقاطعاً ظله، فقال: «لا، ليس هذا هو الوضع المريح، سأعلّقها إلى كتفي ثانية لتتخذ شكل قامتي». ونظر إلى الظل فأحسّ بالارتياح لكنه فكّر: لماذا حملت بندقية؟

وبدا له السؤال سخيفاً، كما لو أنه يسأل: لماذا يلتقي الأفق بالصحراء عند نقطة ما. وعندما عاوده السؤال بإلحاح أشدّ، داهمه همّ مباغت، فقال الرجل: «لماذا حملت بندقية ما دمت لا أحسن التصويب؟»

لم يكن اكتشف وحدته بعد، فأخذ يراقب انكماش الظل. وبدأت اللحظات تتخثّر. وفكّر الرجل: لو يعينني التذكار. ثم رفع يده في مواجهة وجهه. كان يريد أن يحدد الوقت. وأحسّ بأن يده أخف مما هي عليه في العادة، وبأن معصمه طليق. وأحسّ بتدفّق الدم تحت جلد المعصم. لكن، قبل أن تسقط عيناه على المعصم، لم يفطن إلى أنه نسي ساعته في هذا النهار.

وضع الفتى ساعته تحت الوسادة. كان يحس وَهناً تمركز في البداية في نقطة من جسده، ثم أخذ ينتشر تحت جلده. فقال لنفسه: «لو ركّزت بصري على نقطة ما في الحائط المقابل، فقد أستطيع الإغفاء».

كل ما فعله، طيلة النهار، أنه قرأ فصلاً في كتاب، وعندما أحسّ بحنين دافق يكاد يجرفه صوب الأهل، تناول مجلة قديمة، وأخذ يقرأ بصوت مرتفع قصيدة فيها. لم يكن في القصيدة ذكر للأهل، لكنه شعر بشيء يشهق منتحباً في داخله،وبعد قليل أحسّ بالإعياء، ولم يعد يفكّر، فركّز بصره على نقطة في الحائط المقابل.

على الحدّ الرهيف بين الإغفاء واليقظة، نقرت الدقة الأولى، فانهدم الحدّ، واجتاحته اليقظة، ففكّر: لا بأس، سأحاول ثانية. إلاّ أن الدقات الوانية أخذت تخترق حشيّة الوسادة وتتجمّع في أذنه، ثم تتدفق إلى رأسه، فانقلب إلى الجهة الأخرى، وأخذ ينظر، وهو مستلق على ظهره، عبر النافذة.

كانت ضاحية مصر الجديدة عنقود ضياء مطروح على البيداء، وقد أخذت العتمة تلتهم حباته المضيئة. وأحسّ الفتى بالبهجة تسري إلى نفسه، فأخرج ساعته من تحت الوسادة، لكنه لم يستطع أن يحدد الوقت، فثبّت الساعة إلى معصمه، وأغمض عينيه.

تثاءبت زليخة، وهي تضطجع على الأريكة المقابلة، وكان جسدها ساكناً كغابة غادرتها وحوشها. لكن عندما فتح يوسف عينيه اكتنفه جوّ هلَع، فحدّق في زليخة لبرهة، ثم حاول أن يبدد اكترائه على زوايا الغرفة في دورة بطيئة.

- «أنت هنا؟»

قالت زليخة مع زفرة: «تسللت إلى هنا عندما كنت تغمض عينيك». ثم بدت كما لو أنها «تشرق» كلماتها إلى الداخل: «تسللت.. كلمة مناسبة لوصف اجتياز هذه العتبة».

ظلّ صامتاً، فحاولت أن تشيع جواً من الألفة: ـ «راقبتك. كنتَ تحاول عبثاً الإغفاء».

اعتدلت في جلستها، وحاولت أن تبدو أكثر توازناً، لكن الأنثى قبل ذلك كانت قد انفصلت تماماً وأخذت تداهمني، فحولت وجهي عنها.. وكانت تراقب تحولي، قالت:

ـ «هل هو أبوك؟».

قلت:

ـ «إنه أبي.».

رنت زليخة إليه. كان الأب ضمن إطار مذهب يرتكز إلى الطاولة.

قالت زليخة:

ـ «له عينا صقر.. كما لو أن صقرين صحراويين يطلان من عينيه.».

كانت عيناه تحتضنانني..

قال يوسف:

ـ «لكنهما تعبتا من التحليق في الآفاق الشاسعة، وأحرقهما الهجير. إنهما مستكينان من المحجرين الآن».

كان يوسف يتكلّم بتحنان، وبدأ ينسى وجود زليخة.

ـ «وأنت؟».

بوغت بوجودها من جديد. إنها هنا. عادت الغرفة تمتلئ بها. فأسقط بصره عليها.

ـ «أما زلت تحلّق بعيداً؟».

بدت كلماتها أكثر ليونة. لم يقل يوسف شيئاً.

ـ «إنك دائماً على الطرف الآخر.».

لم تتململ في نفس يوسف أي رغبة ليقول شيئاً.

ـ «كما لو كنت في منأى عن كل الأشياء.».

وقال الفتى:

ـ «هكذا أبدو عندما أكون وحيداً.».

همست زليخة:

ـ «لكننا معاً الآن.».

وأدرك الفتى على أي بعد تقف الأنثى، وحاول أن يُبقي على المسافة:

«إنها تدرك تماماً أنه لا يكون اثنان معاً قط».

وأحسّ بأنه محاصر، وأن الأنثى قد اجتاحته، وقامت زليخة، وأخذت تقترب.

اقترب رجل مني..

كانت الشمس تنهمر فوقي، وقال الرجل الذي اقترب:

ـ «أنت غريب هنا.».

نظرت حولي، ثم نظرت إلى نفسي. كنت وسط دوائر مصعوقة الحركة. في وسطها وغير قادر على الحركة معها. ولكنها تدوّخني. ونظرت إلى نفسي ثانية، وقلت للرجل:

ـ «إنني غريب هنا.».

ابتسم الرجل، وقال:

ـ «كنت أراقبك من الرصيف المقابل، وأنت تسقط ظلك، وتحدّق بالرصيف كما لو كنت تحلم.».

رفعت وجهاً إليه:

ـ «كما لو كنت أحلم! إنني أحلم.».

لم يردّ. أدرك واحدنا قبل الآخر، أننا لن نمد جسراً من ترديد عبارات متماثلة بالتقابل، فسكتنا معاً، وبعد برهة سأل:

ـ «ما اسمك؟».

قلت:

ـ «يوسف.».

قال الرجل:

ـ «يوسف! يا للاسم.».

قلت:

ـ «إنه إسمي.».

قال الرجل:

ـ «أعرف. أخبرتني. ولكن.».

نقلت الحقيبة إلى اليد الأخرى، فلم أسمعه.

سأل:

ـ «هل الحقيبة ثقيلة؟».

هززت رأسي:

ـ «إنك تبحث عن مسكن.».

فهززت رأسي.

ـ «لا مانع من أن أعطي غرفة عندي، لفتى وديع.».

نظرت إليه. قال:

ـ «الذين يحلمون كثيراً، هم أكثر وداعة.»

مشيت وراءه. قال:

ـ «هذه هي الغرفة.».

وقفت في وسطها، بينما كان يخرج.

دخلت المرأة، وأنا أقف وسط الغرفة إلى جانب السرير. قالت:

ـ «هل تعجبك؟».

كانت الغرفة مربعة ومنتظمة الزوايا والتكوين. فهززت رأسي.

أخرجت كتباً من الحقيبة. قالت المرأة:

ـ «هل جئت للدراسة؟».

قلت:

ـ «نعم.».

قالت:

ـ «الرجل الذي أتى بك مدرّس. إنه زوجي.».

كنت أركّز صورة الأب على المنضدة. قالت المرأة:

ـ «ستحس بشوق إلى الأهل.».

أغرقت نفسي في الصورة. قالت المرأة:

ـ «ما اسمك؟».

قال

ـ «يوسف.»

تأملتني طويلاً، وأخذت حدقتاها تضيقان وتنزان اشتهاء، ثم استدرت وأغلقت الباب وراء ضحكتها،فعدت إلى الوسط، وأخذت ضوضاء القاهرة ترشح من الشقوق.

نفثت زليخة: «أما زلت هناك».

كان السكون مطبقاً، وحاول يوسف أن يقول شيئاً، فأحسّ باختناق، ولم تقو الكلمات على التغلغل بينهما، فصمتا. وأخذت زليخة تغرق فيه من جديد. وعندما حاول هو أن يطفو، قطّرت زليخة حوله هذه الكلمات، تشده بها إليها:

ـ «دعنا معاً.. هذه اللحظة؛ إنها اللحظة الوحيدة التي لا يكون فيها بين اثنين مسافة.».

وأخذا يتداخلان من جديد، لكنه فجأة أحسّ بهوة تنفتح تحته، فحاول أن يتشبّث بها، ثم أخذ يعي أنه يسقط، ولم تستطع هي الإمساك، فتركته يسقط، وأخرجت قدمها خارج السرير، فيما استدار يوسف إلى الناحية الأخرى.

قالت زليخة وقد استعادت صوتها:

ـ «ما الوقت؟»
تململ يوسف قبل أن يجيب:
ـ «حاولت أن أعرفه ولم أقدر.».
قالت زليخة:
ـ «لا يهم هذا.. أحسّ أنه قد يدخل الآن.. عليك أن تغفو.».
دمدم يوسف:
ـ «إنك تحسين ذلك.».
بدأ الجزر.. وأحس يوسف أنه متروك في مكان شديد الجفاف. بينما زليخة تبتعد وتدمدم بأغنية، فحاول أن يناديها، لكنها إنمحت تماماً خلف الباب.
إستدار يوسف ثانية. نظر إلى الصورة المسندة إلى المنضدة. لم ير العينين.
كان معطف منامته، الذي طوّحت به زليخة قبل قليل، قد استقر على المنضدة فوق الصورة،فشعر بأن أجنحة الصقرين تخفق خفقاناً مضطرباً، وعندما استكانت، أحسّ يوسف بكآبة تمتد فوقه، ثم تتجمّع في نصل حاد راح يخترقه، فانقلب على الفراش، وضغط رأسه على الوسادة، وراح ينتحب.

شعر الرجل بأشعة الشمس تنصبّ بشكل مخروطي لتتخذ لها بؤرة حارقة في قمة رأسه، وبدأ يستشعر وجود البندقية فقال في نفسه: «ما دمت لا أحسن التصويب، فلماذا حملت بندقية؟»
كانت الوحدة قد بدأت تزحف نحوه، وتحاصره في الوسط. وعندما نظر إلى ظله، شعر ببعض التسرية.. إذ أخذ الظل في الانكماش والتشكّل، فراقب الرجل باندهاش طفل، ظلاً قصيراً ومضغوطاً لذراعين تتأرجحان على الرمل، واستغرقته الدهشة، فلم يطرح على نفسه أية أسئلة، حتى أحسّ بثقل الوهج على أجفانه، لكنه لم يقدر أن يضيّق ما بين جفنيه أكثر.. إذ احتفظ بوضع مستقر لمسافة بين الجفنين، كانت الدنيا تتسرّب خلالها إليه، فيدافع بهذا الوضع عن نفسه من الغرابة.
عندما كان للرجل أب قال له: «لا تنظر إلى الدنيا وأنت محملق فيها، لأنها تكون أضيق من حدقتيك، فتحاط الدنيا بهالة مبهمة، بلا شكل لتملأهما». وقال الرجل: «احتفظت من الأب بهذه الوُقية».
وأخذت الشمس تُقطّر فوق أجفانه سائلاً متوهجاً وحارقاً، فرفع وجهه ليحدد مكان الشمس على الأفق، إلاّ أنه أحسّ ببهجة تشرئب في نفسه عندما مرّت عيناه على نهاية المدى.
كانت البهجة تركض صوب غزالين، خرجا كبسمة من انفراج الصحراء عن الأفق.
هتف الرجل: «لم أعد وحدي».
وراقب انسكاب الأشعة على القوائم الرفيعة، واحتضنه إحساس بالألفة نحو كل الأشياء، وقال: «لو أستطيع أن أعود بهما إلى المدينة».

عند الفجر ترك الرجل مدينة ما.
قبل أن يفيق، اجتاحت المدينة لجة من الأحزان، أخذت تنبع من شقوق الجدران ولا تترك أثراً عليها. وكان يعيش وراء الجدران أناس يضحكون عندما يخرجون إلى الطرقات، بينما الحزن يتوالد في نفوسهم، ويتجمّع تحت الجلد، ثم ينزّ من مساماتهم، دون أن يحسّوا به. وعندما بوغتوا بالحزن يجتاحهم في الطرقات انطفأت ضحكاتهم، وقبعوا خلف الجدران، وأغلق كل منهم نفسه، ليدفع عنه تدفق أحزان الآخرين نحوه، لكن الحزن كان يطفح وينزّ باستمرار.

فتح الرجل عينيه عند الفجر، ولم يقو على رفع رأسه فوق اللجّة، فأحسّ باختناق وفكّر؛ لو تنفتح مساماتي من جديد. لو أستطيع أن أنسكب فوق الرمال.
وخرج.

قال الرجل بحسرة: «كم تبدو المسافة ضيقة بين الذرات! إنها أيضاً تفقد طبيعتها».
وعندما رفع بصره عن الرمال، عاودته البهجة من جديد وقال:
«لو أستطيع أن أعود بهذين الغزالين إلى المدينة.».
ثم غمره انكسار، وفكّر؛ لكن كيف؟. وتحسس البندقية، ففكّر ثانية؛ لن أستطيع.. هذا يختلف تماماً، واستمر في سيره. وكانت القوائم ما تزال تلمع تحت الشمس، فهمس الرجل برجاء: «ليبقيا إذاً على مرمى نظري. الصحراء أوسع مما كنت أعتقد.. لن أطيق هذا». لكن المسافة صارت تتزايد، فأخذت البهجة تنحسر باتجاهه، وعندما اختفى الغزالان، ذوت تماماً في نفسه، فأرخى يده على البندقية التي كان ما زال يتحسسها، وفكّر؛ ما دمت لا أحسن التصويب، فلماذا حملت بندقية؟
وأحسّ بالوحدة تزحف نحوه، وتحاصره في الوسط.

كان شاباً كثير الصمت والوداعة، عندما وجد نفسه ملقى في وسط الضجيج، وكانت قبالته فتاة تبدو أثيرية كحلم.. وأخذ ضجيج الآخرين يفصلهما.
كانت الفتاة قد راقبت الشاب طيلة خمسة أيام، ظلّ الشاب خلال هذه المدة يمتد صوبها ويعاني لكي لا يُسمع صرير للنفس التي أخذت بعد زمن طويل تنفتح.
قالت الفتاة: «لو أجتازُ المسافة. لو أقدر».
وكان الضجيج يدفعها في الاتجاه الآخر.
وبقي الشاب صامتاً.
وفكّرت الفتاة؛ ليست المسافة، إنما هذا الانطواء. عدم المشاركة، والحدب على جرح في الداخل.
وفكّر الشاب بصمت، كمن يعثر عليها من جديد؛ يا لله.. إنها تبدو كرقعة رقش عربي.
وأخذت كلمات الآخرين تترامى بينهما، فجهدت الفتاة لاختراقها، وقالت:
ـ «كأنما انفصل عن الرحم بآلة حادة، وضربة سريعة قطعت كل الوشائج، لكنها أبقت على جرح دائم التجدد».

أحسّ الرجل بإعياء. لم تعد الشمس تغمره.. صارت تثخنه بانغراسها الحاد في جلده. نظر إلى الوراء، ثم رفع وجهه إلى الأعلى، وبذل جهداً ليجعل وجهه موازياً للشمس، لكنه لم يحتمل انهمارها عليه، وفكّر؛ لو أعود الآن. لكنه لم يستدر. وقال: «ابتعدت كثيراً ويحسن أن أعود». ثم مدّ بصره إلى الأفق أمامه، وفكّر؛ لو عدت الآن لوصلت المدينة مع الغروب. لكنه استمر في السير.

كان الشاب قد سار طيلة النهار تحت شمس دافئة وحانية، في مدينة احتضنته كما لو أن سماءها جناحان أخذ يمرّغ جبينه بزغبهما بألفة.
هتفت الفتاة: «إنها الشام»، كما لو كانت تنادي أماً.
كانت المدينة حولهما.. وحوله عينا الفتاة، والمدينة تملأ حدقتيها، فحاول أن يعثر على نفسه فيهما.

وظلا صامتين.
أخذت الفتاة تشف. انتزعها من وراء الضجيج، لكنه لم يضف إليها أي تخصيص. وهتف يوسف بغبطة:
ـ «وكالرقش العربي، إنها بدون فراغات وبدون نهايات».
وأحسّ بالغبطة تتدفق لتغسله من الداخل. وعندما انكفأ إلى الداخل، كانت عيناه مليئتين بها وهمس: «إنه الإلتئام».
وظلا صامتين.

كان الصمت يفترش الصحراء. وبدأ الرجل يحسّ بما يترصده وراء هذا الانفساح من الصمت فخاطب نفسه: «ألن يكفّ هذا الضجيج في الداخل؟»
وكانت الوحدة قد توغلت حتى النهاية، واللحظات قد جفت تماماً. لم يعد الرجل يقوى على شيء، فاستدار بوهن إلى الوراء، ليتبيّن الآثار التي كانت تتركها قدماه على الرمل، لكنه لم يجد أي أثر، فرفع رأسه دون أن يرقب ظله، وبقي بصره هائماً.
فجأة تشوّش الصمت، وأخذت الوحدة تنحسر.
كان ثمّة غزال قد لاح لتوه، لكنه بدا من بعيد، موهناً. وفكّر الرجل؛ هل يكون أحد اللذين خرجا قبل الآن؟ ولم يطرح سؤالاً آخر، إذ أحسّ بإيقاع خافت للأظلاف يتردد على سطوح الذرات، حتى يصله. وترقبّ خروج الآخر، فيما أخذت السكينة تغلفه، وفكّر؛ قد يكون أحدهما. لكنه ظلّ يترقّب خروج الآخر، وصار الإيقاع يقرّب المسافة، وأحسّ الرجل لبرهة أنه أصبح قريباً بحيث لو مدّ يده للمس جلد الغزال. وكان محبطاً حتى الإعياء، فظلّ يترقب خروج الآخر، وبعد برهة بدأ يفقد ارتباطه من جديد، وكان الغزال قد أخذ يدخل في انفراج الأفق عن الصحراء، فينغلق عليه، فشعر الرجل بأسى.

دخلت المكان في جو حزين، وكأنما كل الأشياء كانت تدمع. لم يكن هنالك أيما سبب سوى أن النهار ارتحل، وأن المساء تأخر في المجيء. كانت دموع كل الأشياء تسحّ دونما كثافة أو لون، لكنها تترك ملوحتها وتغيض.
للوهلة الأولى لم أقدر أن أحدد المكان الذي دخلته، لكني شعرت بوجود الآخرين. الآخرون الغائبون أبداً، أخذ حضورهم المباغت في وعيي يملأني بالتوقعات، وكانت قد دخلت هي أيضاً.
رسمتُ للمكان حدوداً واضحة، ولم تعد تخشى شيئاً. هي والمكان كانا واضحين تماماً، وكان وضوحها يعطيها وجوداً فيه، بينما كنت أغيم خارجه.
مرعب هذا الوضوح. فكّر يوسف؛ إن وضوح الآخر يعني انفصاله.
أحسست بأن صوتي قد يخذلني فيما لو ارتفع. وبأن الكلمات ستمتد لتصبح مقياساً آخر للمسافة، ستصير الكلمات بعداً.
وكان عليّ أن أقول شيئاً، لأخرج من حالة الارتطام والارتداد. ولكنهما ظلا صامتين.
فكّر يوسف في صمته؛ ما زالت هي قطعة الرقش العربي.
وأحس أن إدراكه لكل ما حدث، أخذ يفري أعماقه كحد نصل شديد الإصرار، كثير الثلوم، فنزّ جرح في داخله. فقال بانكسار:
ـ «إنها هي، لكن الإطار..».
ظلّت جالسة على الكرسي المقابل صامتة، واضحة تماماً، وكان الوضوح يخيفني، فأخذت أدرك بأنها تغادرني نهائياً إلى الكرسي المقابل. أخذت تنأى لتصبح مجرّد التكوين المقابل الشديد الوضوح. والإطار يحددها بشكل حاسم، ويتركني في الخارج.

وقال يوسف: «إنها لن تمتد صوبي قط.. لقد وُضعت نهايتها، لقد حدّدَ الإطار كل النهايات. عندما عثرت عليها، كانت قد وضعت ضمن إطار».

وأحسّ بحالة الارتطام والارتداد تعاوده من جديد.

كان عليّ من جديد أن أقول شيئاً، وعندما انفرجت شفتاي لم أقو، فبوغت بأني أسأل عن الوقت.

هذا الصباح فقد يوسف ساعته، وفكّر: كان يجب أن لا أفقدها، كانت ساعة غير عادية.. لم يكن لها إطار دائري، لم تكن المسافة بين محور عقاربها وكل الساعات متساوية، ومتشابهة. كان يجب أن أحافظ عليها..

لكن في هذا الصباح فقد يوسف ساعته.

رفعت يدها فوق سطح الطاولة، فهمتُ، فقلت:

ـ «لا يهم، أنا أيضاً فقدت ساعتي هذا الصباح. لماذا لا نخرج ونسير قليلاً.».

كانا صامتين عندما قاما، ولم يستطع النظر إليها، إذ فقد ارتباطه تماماً، وأحسّ بأنه متروك في كثافة اللحظة وثقلها كبندول ساعة، عُبثت جيداً، ثم انتزعت عقاربها، حتى لا تبقى لحركته أية دلالة.

قام يوسف أولاً. سارا معاً لخطوات.. لكن قبل أن يصيرا عند الباب، خطا يوسف خطوتين خلفتا الفتاة وراءه (لم يعرف فيما بعد إن كانت قد عادت وحيدة، أم أنها بقيت لمدة طويلة عند الباب).

وابتعد.

«ابتعدتُ كثيراً».

قال الرجل الوحيد، الذي لم يترك أثراً على الرمل. فكّر بحسرة. ثم صرخ: «لماذا لا يلوح غزال آخر!». وتوقع أن يسمع صدى لصرخته، ليبتهج، لكنه لم يسمع شيئاً، فتحسس البندقية، ونظر إلى ظلها، فلم يجده. كان الظل يسيل على جسمه دون أن يصل إلى الأرض، ففكّر: لا بدّ أن الشمس الآن في السمت. فلم ينظر إلى السماء، وشعر بقدميه تخذلانه، فاقتعد مرتفعاً رملياً صغيراً، ثم مدّ يده إلى البندقية، وحملها بين يديه، ولاحظ أن خزّانها ما زال مملوءاً ففكّر: لو أطلقت الآن.

وأدار رأسه حوله، وفكّر ثانية:

الرصاصة لن ترتطم بشيء، إنها ستسقط في الفراغ.

أحسّ بانكسار، فهمس:

ـ «لماذا حملت بندقية ما دمت لا أستطيع التصويب؟!».

ووضع البندقية بين ركبتيه، وضغطهما عليها، بعد أن غرس رأسها في الرمل، وشدّ عليها قبضته. لم يحس شواظ الشمس، وأخذ يحدّق إلى أسفل، لكنه لم يجد ظله، فترك رأسه يسقط على صدره. وهوى ظلّ الرأس في حضنه، فأخذ إحساس مرير يتغلغل في نفسه لافتقاد الظل.. وحاول أن يمد رأسه إلى الأمام، ولكن الظل أخذ يتحرّك على جسمه، دون أن يصل إلى الرمل، وبذل عناءً كبيراً، لكن ذرات الرمل ظلّت تلتمع تحت الشمس، وشعر الرجل بالإعياء يمخره، فتكوّر على نفسه أكثر، وغلّفه الأسى.. وكان قد فقد الارتباط تماماً.. ولكن عندما رفّ عليه خيال زليخة شفيفاً لهنيهة، ابتسم، ثم أخذت السكينة تغيبه.

شعر بتباعد بين ركبتيه، فراقبهما، ثم أخذت يداه تسترخيان، بينما كانت البندقية تميل، وتسقط ظلاً على الرمل.

وتطاول الظل، ثم أخذ ينكمش، كلما تسارعت البندقية نحو الأرض.

جلست ليلى عند جذع شجرة في وسط الغابة.
كانت متعبة وقلقة. أحسّت بألم مبهم في داخلها. حاولت أن لا تفصح عنه، حتى لا يظهر على ملامحها في الصورة المواجهة للأطفال، في صفحة الكتاب الذي يحتوي على قصتها مع الذئب.
أخذت باقة الأزهار التي جمعتها من الغابة، تذبل في يدها. وعندما رفعت غطاء السلة التي كانت تحملها في يدها الأخرى، وجدت أن الخبز فيها قد جف، وأن التفاحات أخذت تتعفن.
إلاّ أنها اضطربت حين لاحظت أن رداءها الأحمر أخذ يبهت. فأحسّت ليلى أن زمناً مرّ عليها في انتظار الذئب منذ وصولها إلى الغابة لتقطف الأزهار وتلتقي الذئب.
لكن الذئب لم يحضر.
وعندما بلغ بها التعب والانتظار والقلق هذا القدر، اقتعدت مكاناً عند جذع الشجرة، وراحت تفكّر بحالها، وبالربكة التي سببها لها غياب الذئب.
ما الذي أخّره كل هذا الوقت! وماذا سيحدث لو أنه لم يحضر!
فكما يعرف كل الأطفال، لا تقدر ليلى (منذ رسم لها هذا الدور في القصة) أن ترجع إلى بيتها، وتواجه أمها، التي حمّلتها الطعام وطلبت منها أن توصله إلى الجدة المريضة في الطرف القصي من الغابة.
ولا تقدر أن تذهب إلى بيت الجدة، قبل أن يسبقها الذئب إليه، ويلتهم الجدة، وينام في سريرها.
لكن الذئب لم يظهر بعد.
وقبل أن يبلغ القلق في نفسها درجة غير محتملة، مرّ ببالها خاطر: ماذا لو أن الذئب ذهب إلى بيت الجدة، من دون أن يمر بالغابة ويلتقي بليلى.
لكنها أبعدت هذا الخاطر، حين تيقّنت من أن الذئب، على ما يتميّز به من صفات تجعله من الأشرار، لن يجرؤ على الخروج على نص القصة، فاطمأنت قليلاً.
لكن حين بدأ ضوء النهار ينزاح ببطء عن الأشجار، وراحت الظلال تزحف على الغابة، وتجعلها أكثر دكنة ووحشة، أخذ قلق من نوع آخر، يزحف على نفس ليلى، إذ صارت تفكّر بالذئب نفسه، وليس في دوره المرسوم في القصة:
ماذا جرى له يا تُرى! ولماذا تأخر إلى هذا الحدّ!
وخشيت أن يكون مكروه أصابه.
فرغم العداء والتنافر الممتد في القصة بين ليلى والذئب، إلاّ أن زمالتهما واشتراكهما في أحداثها، أوجد بينهما أُلفة، لا يدركها غيرهما. ويحرصان على إخفائها عن الآخرين، حتى لا تفقد القصة عناصر التشويق والإثارة في الصراع بينهما.
وقادها ذلك إلى التفكير بالآخرين:
ماذا يحدث لهم، لو أن الذئب لم يحضر.
فكّرت، بمئات، وآلاف الأطفال الذين يقرأون القصة: كيف ستذوي دهشتهم، عندما تزول من رؤوسهم الصغيرة الإثارة التي يولدها ظهور الذئب، وما يجري له في القصة.
وفكّرت في الارتباك الذي سيعاني منه آلاف الآباء والأمهات الجالسين على حواف أسرّة أطفالهم، يهدهدونهم ويسحبونهم عبر أحداث القصة المثيرة إلى النوم؛
ماذا سيكون من حالهم، لو أن الذئب لم يظهر، وكيف سيحتالون أمام أطفالهم على هذا الموقف المربك. إذ لن تساعدهم أخيلتهم على الخروج منه.
وحمدت الله، على أن غياب الذئب في هذا الوقت، وانتظارها له، وقلقها عليه، وحتى ذبول الأزهار وبهوت ردائها الأحمر.. كل ذلك لن يظهر على صفحات القصة، لا بالكلمات ولا بالصور، وسيظل خفياً كخفاء علاقتها الخاصة بالذئب.
هنا عاودها التفكير فيه، وتمنت أن يأتي بسرعة، قبل أن يصبح غيابه دائماً، لا يمكن معالجته في القصة.
بدأت ليلى تحسّ بالإعياء لثقل ما فكّرت فيه، ثم راحت نظراتها الباحثة في أرجاء الغابة تنوس، وكادت تغفو عند جذع الشجرة، لولا أن ظهر ظل باهت، ومتطاول، فاجأ وعيها، فتيقظّت له، وحدّقت أمامها.. فإذا بالذئب يقترب بخطى متعثّرة متعبة، ورأسه منكوس، إلى أن وصل أمامها.
حاولت أن تنهض لاستقباله، إلاّ أنها لم تقدر.
لكن وجدت لديها قدرة كافية، لتهتف به بحدة:
«لماذا تأخرت.. خفت أن لا تأتي أبداً..»
ظلّ الذئب صامتاً يحدّق في ليلى بذهول..
فأكملت: « تأخرت كثيراً..»
قال الذئب بصوت خافت: «كنت أفكّر بأن لا آتي أبداً.»
حدّقت فيه: «ماذا!؟»
قال: «بالأمس ولدت زوجتي جراء صغاراً. صار عندي أطفال. فرحت بهم، ونسيت نفسي. فقضيت طوال الليل ألحس أبدانهم.. وطوال النهار أراقبهم، وأفكّر فيهم، وأحلم أن ألاعبهم، وأراهم يكبرون.. وأحكي لهم حكايات. ثم تذكرتك، فقلت لا يجوز أن تبقي هنا تنتظرين في الغابة.. فجئت.»
هبّت ليلى واقفة وهتفت: «إذن هيا بنا لنكمل قصتنا».
نظر الذئب إليها، وكأنه يتوسل، ثم قال بصوت واهٍ: «جئت لأعتذر. لا أريد أن أكمل دوري في هذه القصة.»
فتحت عينيها بذعر، وقالت: «ماذا!؟»
قال بصوت متهدج: «أرجوك.. يا ليلى».
قالت ليلى: «لا تقدر. أنا أيضاً أتمنى أن أكون الآن في البيت، تحكي لي أمي حكاية، وأنام على زندها، ولكن لا أقدر. أنا وأنت يا ذئب محكوم علينا أن نقوم بهذين الدورين في القصة».
قال الذئب: «وماذا يهمك أنت. ستخرجين من القصة بطلة منتصرة، وحيّة. أما أنا فأخرج شريراً مهزوماً.. وميّتاً».
قالت ليلى: «أنت تخاف من الموت..».
قال الذئب: «ومن لا يخاف الموت! ثم إني تعبت من هذا الدور فلا أريد أن ألتهم الجدّة. ولا أريد أن أخدعك..»
قالت ليلى: «أنا سأكشف خدعتك. والجدة ستُنقذ من بطنك وتخرج حيّة، عندما أستغيث ويأتي الحطّاب ويقتلك»
قال الذئب بانكسار: «وأنا أبقى ميتاً. لا أريد أن أموت. أريد أن أعيش مع أطفالي حتى يكبروا، وأهرم، وأموت ميتة طبيعة. لا أخاف الموت، ولكني لا أريد أن أموت هكذا. أحب الحياة. أرجوك يا ليلى».
أخذ شيء ما، غامض، يتكسّر في داخل ليلى، وكانت تحس تكسره الموجع.
إلاّ أنها تصلبت وقالت: «غير ممكن. مستحيل. مؤلف القصة مات منذ زمن. ولا يمكن تبديل أحداثها. والقصة منتشرة هكذا بين أطفال الدنيا. ألا تفكّر فيهم! ماذا سيحدث لهم لو رجعت ولم تُكمل القصة. ستموت الإثارة في نفوسهم. هروبك من إكمال القصة.. هزيمة لهم».
ونظرت إليه نظرة حانية، وقالت وهي تغص بالكلمات: «أفهمك يا ذئب. وأحسّ بما تحسّ به، لكن لا جدوى. محكوم علينا أن نفعل ما هو مرسوم لنا في القصة، فلنفعل ذلك بسرعة، دون أن نفكّر بالأمر.. سيكون ذلك أخفّ ألماً. هيّا أسرع الآن إلى بيت الجدة. إلتهمها، ثم نم في سريرها، حتى أصل أنا فأظنّك الجدة، وأسألك عن عينيك الكبيرتين، وأذنيك الكبيرتين، وفمك الكبير بأسنانه الحادة.. وأنت تعرف ما يحدث بعد ذلك. هيا يا عزيزي الذئب. أرجوك. ليس من أجلنا، بل من أجل ملايين الأطفال الذين ينتظرون النهاية بلهفة».
تمتم الذئب بأسى: «نهايتي..»
تمتمت ليلى بحسرة: «نهايتك..»
دمعت عينا الذئب وقال بصوت مرتجف: «وأطفالي أنا..».
لم تجد ليلى ما تقول، فظلّت تحدّق فيه بعينين دامعتين، ثم تنبهت فتماسكت، وشدّت قامتها، واتخذت وضعها المناسب الظاهر في صور القصة.
أدرك الذئب، أن لا مفر أمامه، فلوى عنقه بانكسار، وسار مبتعداً عن ليلى عبر الغابة باتجاه بيت الجدة، بخطى واهنة متعثّرة.
وكان بين الخطوة والأخرى يلتفت إلى الوراء، لعل ليلى تناديه، أو تشير إليه بأن يرجع،إلى أن أخفتها عن ناظريه ظلال الغابة المعتمة الكابية.
وبعدها..
سارت أحداث القصة بالتساوق والتشويق والإثارة المرسومة، إلى أن انتهت بقتل الذئب، وجلوس الجدة والحطاب وليلى إلى المائدة، فرحين بانتصارهم عليه، وخلاصهم منه.
*
وما إن أُغلقت أغلفة الكتب على قصة ليلى والذئب.
وقبّلت الأمهات أطفالهن السعداء بالنهاية السعيدة، وأغلق الآباء الأبواب على أطفالهم بدعة واطمئنان..
حتى كانت ليلى، في المنطقة المعتمة، التي لا تبلغها القصة، ولا يصلها الأطفال، وحيث لا كلمات ولا صور، وراء غلاف القصة..
تجثو عند جثة الذئب، تضع رأسه في حضنها، وتبكي بكاءً مرّاً.

هتف جمع من منطفئي النظرات، الذين كانوا حول فوهة حفرة الأسود:

ـ «سبارتاكوس.»

كان سبارتاكوس في قعر الحفرة. رفع رأسه، ثم أسقطه، فأعادوا النداء:

ـ «سبارتاكوس، أنقذنا.»

نظر إليهم من قعر الحفرة بعينين منكسرتين. ثم انتحى ركناً قصياً، وأطرق، فانقسم جمع محنيي الأعناق فوق حفرة الأسود، وهمهم البعض: «يبدو حزيناً».

فناداه آخرون:

ـ «سبارتاكوس، هل أنت حزين؟»

وكرروا السؤال مرات متلاحقة، فرفع سبارتاكوس إليهم وجهاً متعباً، أخذت عيناه تغيضان في ملامحه، وقال:

ـ «أنا حزين وجائع.»

وكان صوته مجروحاً، ولم يتردد له صدى في قعر الحفرة.

وناداه آخرون:

ـ «سبارتاكوس، لماذا أنت حزين؟»

فقال، بصوت مرتعش:

ـ «حزين، لأنني جائع.»

فهمهم الجمع:

ـ «حزين من الجوع.»

مدّ قيصر يده نحو طبق العنب، وتناول حبة، واستدار إلى الوراء:

ـ «جعلناه يتضوّر جوعاً، ليكون أشد ضراوة.»

وازدرد حبة العنب، فسأل واحد من الوراء:

ـ «الأسد؟»

أجاب قيصر دون أن يستدير:

ـ «سبارتاكوس. والأسد أيضاً اخترناه شديد الضراوة.»

وضع ابن قيصر رأسه على كتف أبيه وسأله:

ـ «حقاً، ستترك العبيد يذهبون، إذا انتصر سبارتاكوس!»

ربّت قيصر على خد ابنه:

ـ «دعك من التفكير في هذا. ستشهد نزالاً ممتعاً.»

أومأ قيصر بسبابته، فانفتح حاجز من القضبان مقابل سبارتاكوس، وبرز منه أسد، فصرخ الجمع:

ـ «سبارتاكوس.»

ضرب الأسد بمخلبه الأرض مثيراً زوبعة من الغبار، تلاشت قبل أن يرفع سبارتاكوس رأسه، فهتف الجمع:

ـ «سبارتاكوس، هذه معركتك.»

امتدت فوق الفوهة قبضات متشنجة، وصرخ البعض:

ـ «سبارتاكوس، أنقذنا.»

فنظر إليهم، وكانت عيناه منطفئتين، فقال الآخرون:

ـ «ما زال حزيناً.»

واختلطت الأصوات، ثم تميّز منها: «وجائع».

وفيما أخذ الأسد يتحفّز، ظلّ سبارتاكوس مطرقاً، ففتح الجمع فماً، ظلّ مشدوهاً، وانكمش الأسد، ومدّ عنقه نحو سبارتاكوس ثم لوّح بذيله، ودار في مكانه مرتين. لم يلحظ سبارتاكوس حركته، حتى هدأ في مكانه، فران على المكان هدوء غريب. رفع سبارتاكوس وجهه، وراح والأسد يترامقان، ثم شدّ سبارتاكوس قامته، إلاّ أن عضلاته ارتدّت متقلّصة، فاستند إلى الجدار، وراح يحدّق في الأسد.

دار الأسد حول نفسه مرة أخرى، حتى واجه سبارتاكوس من جديد، ورمقه لبرهة، ثم لفّ ذيله بين ساقيه، واستدار، وعبر باب القضبان، واختفى.

إنتفض قيصر، واحتقنت أوداجه بالغضب، إلاّ أنه جهد أن يبتسم للنبلاء، وخرج.

إنتظر الجمع، وأيديهم ممدودة فوق الفوهة، ثم أخذوا ينفضّون حولها.

لاحقهم سبارتاكوس بنظرة منكسرة، ثم استدار إلى جدار الحفرة الرطب، وضغط وجهه عليه، وراح ينتحب.

لا يدخل المرء فندقاً ببيتين من الشعر، فكان عليّ أن أسقطهما من رأسي، لأحادث الرجل الذي قال:

(وفطنت في اللحظة ذاتها التي بدأ الرجل يتكلّم فيها، أنني دخلت العالم ببيت واحد من الشعر، وألفيت العالم غرفة واحدة فسيحة، تحتوي سريراً واحداً ضيقاً، وكانت بعد ذلك مقفلة من الداخل).

ـ «لدينا غرفة واحدة بسريرين»

وأضاف: «هناك كثرة من النزلاء».

قلت:

ـ «سريران فارغان مع هذه الكثرة!».

إبتسم، وبدا بليداً بشكل مميّز. وقال:

ـ «سيكون الإثنان لك.»

لم أستطع احتماله، فأخذت المفتاح، وانتقلت ثلاثة أدوار، ووضعت المفتاح في ثقب الباب.

عندها تصاعد بيتا الشعر في رأسي:

«يا صاحب الفندق نحن اثنان.

أعطنا غرفتين، وسريراً واحداً»

فحزنت، وأدرت الأكرة ودخلت.

الغرفة فسيحة، والسريران يتقاسمان مساحتها.

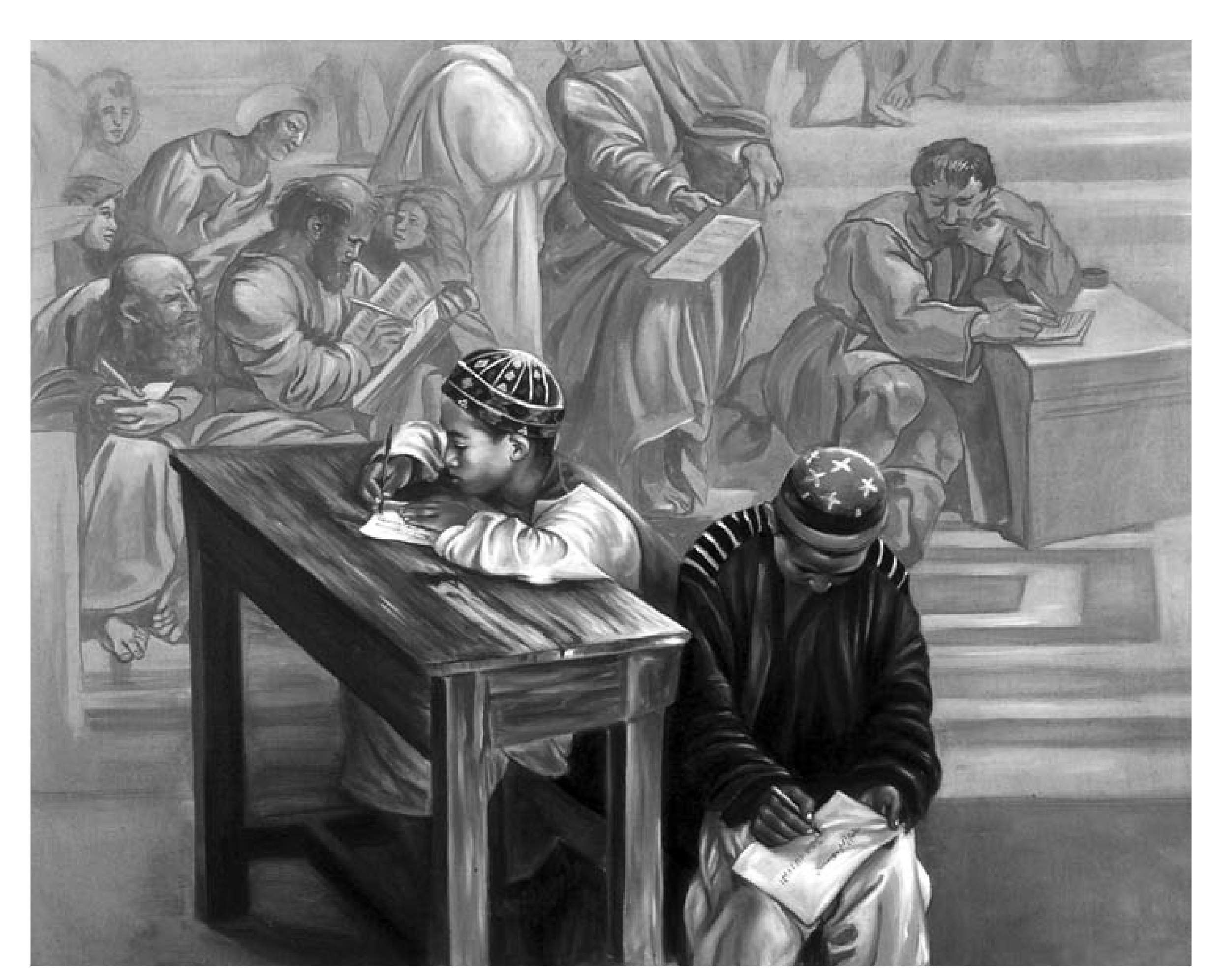
بعد قليل احتواني أحدهما، وانقلبت على جانبي، وأخذ وعيي ينوس، وكدت أغفو. فجأة سقط بصري على زاوية في الغرفة.. سقطة على وعي راكد، فتنبهت، وأخذت المسافات تنداح من حولي، وكنت وحيداً في وسطها، وتذكّرت أن هناك سريرين لرجل واحد. حوّلت نفسي إلى السرير الآخر.. كان فارغاً. فارغاً وبعيداً. بعيداً ووحيداً.. انقلبت عنه، ثم انقلبت إليه، وكان يبتعد، فأحسستنا نتقاسم قطبي العالم، وأن العالم أخذ يستطيل ويتباعد قطباه، ولم يعد هناك من مقياس لأية مسافة، وغمرتني البرودة.. كان السرير الآخر فارغاً، وأخذ صقيع يغزو أطرافي وينمو عند مفاصلي. وكان السرير الآخر.. لم أعد متأكداً. فقد صارت البرودة لا تُطاق، وهتفت: «يا صاحب الفندق اثنان وسرير واحد» وفقد صوتي قراراته.

تناهى قطبا هذا العالم الضيق في الابتعاد، واجتاحه الصقيع.

وكان السرير الآخر.. فنهضت، ثم تحوّلت نحو الباب، فأقفلته من الداخل، واتجهت نحو السرير الآخر، وارتميت فوقه، وأحسست أن قطبيّ العالم قد انطبقا للحظة فوق بعضهما، فلم أعد أحسّ بشيء ولا بالصقيع... تشنجت أولاً، ثم أخذت أستعيد أنفاسي ببطء وصعوبة.

لم أتذكّر في الصباح، في أية ساعة غفوت.. إلاّ أنني نزلت الأدوار الثلاثة حاملاً حقيبتي.

قال لي صاحب الفندق، عند الباب: «هل تغادرنا؟» فكرت؛ لن يفهم أحدنا الآخر. فأخذت أحرّك حقيبتي لأبدو طلقاً، ثم اكتشفت لا جدوى ذلك، فقلت: «بل إنني.. أخرج».



ذات صباح، إضطربت عينا السندباد البحري، كموج يتكسّر،
فسألته أمه: «أترتحل!.»
قال: «البحر يدعوني.»
ـ «وأين تلقي مرساتك؟».
ـ «سأربطها إلى سنابل الأرض.»
ـ «الأرض واسعة.»
ـ «كاتساع أحلامي»
ـ «سمعت أخاك يقرأ في كتاب أن للأرض شكل كرة.»
ـ «أخي يحب اللعب. ويعلمونه في المدرسة أن للأرض شكل كرة.»
ـ «وأنت!»
ـ «أنا لا أعرف المدرسة.»
ـ «ولا تعرف شكل الأرض.»
ـ «للأرض شكل قلب إنسان.»
ـ «أخاف عليك.. قد يكون القلب شريراً.»
ـ «القلب لا يكون شريراً.»
ـ «ولكني أخاف عليك.»
ـ «أتبكين! حدقتاك تضيقان حين تبكين.»
ـ «حين ترحل، وكلما ابتعدت، ستتسع حدقتاي، لتكون الأرض فيهما، وتكون أنت حيثما اتجهت في بؤبؤي.»
هنا سقطت لحظة الوداع في نفس السندباد البحري، كقطرة كثيفة ومالحة، فخرج دون أن يلوح بمنديله.
ولم تحتمل أمه أن تراه يبتعد، فارتدّت عن الباب.

*

سار السندباد البحري، حتى وصل إلى الساقية في الطرف الآخر من الحقل، فجلس هناك.
وجاء أخوه يحمل حقيبته المدرسية، فأعطى للسندباد من دفاتره، ورقة، صنع منها سفينته الصغيرة، ووضعها على سطح الماء، وراحت تتهادى، فرفع بصره إلى السماء، وحين أحسّ بأنه على وشك أن يغادر بغداد، اغرورقت عيناه بالدمع.
ثم أخذت خيالات الأرض تتوامض في عينيه، فظل أسير نشوة الارتحال.
لولا أن أخاه الذي كان يقف على الطرف الآخر من الساقية، صاح مقهقهاً: «انظر.»
وقبل أن ينتبه السندباد البحري إلى ما حدث، أكمل أخوه:
ـ «انظر، الحبر على ورق سفينتك يختلط بالماء.»
نظر السندباد إلى ماء الساقية، فتابع أخوه: «قرأت في كتاب التاريخ، أن غزاة رموا بكتب بغداد في النهر، فظل ماؤه مختلطاً بالحبر.»
أحسّ السندباد البحري، بانكسار، فرفع سفينته المبتلة من الماء، واعتصرها بين أصابعه، وطوّح بها بعيداً، ثم أطرق، وظلّ جالساً عند حافة الساقية حتى المساء.

في المساء قطع الحقل، ورجع إلى البيت، فاستقبلته أمه بالغبطة، ورقصت نظراتها حوله طويلاً، قبل أن تتركه يغفو على زندها.
في اليوم التالي، لم يخرج السندباد البحري.
وحين عاد أخوه من المدرسة، تقدّم منه ورمى بين يديه كتاباً، وقال له:
ـ «انظر، كتبوا كتاباً عن رحلاتك السبع.»
وبدا الأخ مسروراً، فتابع: «لقد استمتعنا، كل أطفال المدرسة بحكايات رحلاتك.»
فتح السندباد البحري الكتاب، ولم يكن يعرف القراءة، فراح بشوق يتفحّص الصور، فأذهله وجود كل تلك الصور لسفن وقراصنة وسيوف، وحيوانات وأفاع وطيور مفزعة لم يرها في حياته. وحين وصل إلى صورة الرخ، كانت أشواقه قد نضبت تماماً، وبدت له الصور مخيفة، فأغلق الكتاب، وأعاده إلى أخيه.. وأحسّ باكتئاب.
ثم بقي بعدها زمناً طويلاً لا يغادر البيت.. ولم يعد يحلم بالسفن والسفر.

لا أذهب عادة إلى البحر؛
ولكني حين دخلت مدينة بحرية، (وكنت قد جئت من الصحراء، حاملاً على رموشي وزوايا فمي ذرات الرمل)، ورحت أطوف في شوارعها، استوقفتني امرأة فرحة، وسألتني؛ لماذا أبدو حزيناً.
ثم هتفت بي؛ «تعال، سآخذك إلى البحر، نتفرّج على طائر غريب، اسمه النورس.»
فذهبنا.
وقطعنا إلى البحر، أزقة عتيقة رطبة، كانت تحتضننا، ثم تلقي بنا إلى شوارع مغمورة بالضوء.
وكنا نسرع الخطى دون أن نتكلّم، والمرأة تنظر إليّ وتقودني، حتى جئنا إلى البحر.
فوقفنا.
مرة واحدة شاهدت البحر، فازددت حزناً.
أما هذه المرة، فأغمضت عيني، وتركت الأمواج تتصاعد في داخلي حتى تغمر قلبي، وهناك تنثّ رذاذاً.
وكدت أنسى المرأة، فرحت أغني بصوت خفيض.
إلاّ أنها صاحت: «ما بك! أنظر إنها هناك.»
ونظرت، فرأيت طيوراً بيضاء تحوم ما بين زرقة الماء، وزرقة السماء، فقلت؛ «ما أحلى طيور النورس».
اقتربت المرأة وقالت: «إختر واحداً وراقبه، سيكون ذلك أمتع.»
فاخترت من بينها نورساً، كان قد ترك بينه وبين النوارس مسافة راح يحوّم فيها، وصرت أراقبه بشغف، وشعرت بألفة نحوه.
كان يطير قريباً من سطح الماء، ثم يدنو من موجة صغيرة، وحين تلامس رجلاه الماء ينتفض مبتعداً، ويعلو فوق الأمواج، ليعاود الغط نحوها، دون أن يلتقط طعاماً.
وكلما تطاولت الموجة إليه، إرتد خائفاً.
قلت؛ «يا لهذا النورس.»
كان شوقه للماء عظيماً، وحنين الارتماء في حضن الموجة ينمو تحت ريشه، ولكن ما تكاد الموجة تنثره بالزبد حتى يبتعد نافضاً جناحيه.
كانت المرأة قريبة مني، تنظر إليّ، ثم إلى النورس.
ثم رأينا (أنا والنورس) موجة تسرع نحو الشاطيء.
وأثار تسارعها النورس، فراح يدنو منها ثم يبتعد، تاركاً ريشه لنثيث زبدها.
وفيما أخذ يداعب نفسه بالغط ثم الابتعاد عن الموجة، تصاعدت الموجة نحوه، فابتل جناحاه.
وقبل أن ينفضهما ناثراً عنهما الماء، كانت الموجة تطاولت إليه، حتى غمرته، وأخذته في حضنها، فراح يحاول أن ينتشل نفسه، وأخذ يضطرب، وينتفض ويصفق بجناحيه، والموجة تغمره وتتناثر من حوله.
بعد قليل، استسلم واستكان في حضنها، فصارت تهدهده نحو الشاطئ، وكان جناحاه قد تراخيا، فطفا.
وعند الشاطئ، أنهدّت الموجة، وتراجعت نحو البحر، حاملة زغب النورس، وتاركة على ريش جناحيه زبدها.
وظلّ النورس مرمياً على الشاطئ، محلول الجناح.
عندها تراجع المدّ الذي كان قد تصاعد في داخلي، فتحولّت إلى المرأة، وصحت: «لماذا فعلت بي ذلك! لماذا جئتِ بي إلى هنا!»
فقالت: «يا لك من عاطفي.»
وحدقتُ في عينيها، فرأيت أنني بالغ التأثر.
فقلت: «يا امرأة. يا امرأة. لماذا فعلت ذلك!»
وهنا اقتربت، حتى لامسني دفؤها، ومسحت عن فمي ذرات الرمل، وبغتة هتفت: «أنظر».



فنظرت إلى الشاطئ.
كان النورس ينفض جناحيه، حتى استوى، ثم فرد جناحيه على سعتهما، وطار مخترقاً الأفق كسهم.
دهشتُ، فقلت: «النورس لا يقدر أن يطير هكذا».
ردت: «إنه يفعل، وها أنت ترى».
قلت: «يا امرأة...» فأمسكت يدي. وحين غاب النورس عالياً في الأفق، استدرنا وابتعدنا متلاصقين.
وعبرنا إلى المدينة أزقة عبقة، وكنت أحس بدفء المرأة يغمرني.
اعتدنا بعدها أن نأتي إلى البحر، لنراقب طيور النورس، والأمواج.
وكنت أقطع معها بين المدينة والبحر، ساحات مغمورة بأشعة الشمس، وأعبر معها إلى البحر زقاقاً ضيقاً ورطباً، تنفتح نهايته على البحر. فتأخذ الأمواج تتعالى بنا وتهدهدنا، ثم تطرحنا على الشاطيء محلوليَّ المفاصل. فنعود إلى المدينة مترعين بالعياء والتشهي.

أحياناً كنت أجيء وحيداً.
وحين تكون النوارس تلتقط طعامها، أُغمض عيني، وأُنصت إلى صوت الأمواج.
وحين أستشعر طعم الملح عند زاوية فمي، أتذكّر الصحراء، فأغني، وأنا مغمض العينين.
وتمتد الأغنية بيني وبينها.
وكلما غنيت تباعدت بيننا المسافات.

لم يبلغ أحد من حملة النعش، ولا من أحد المشيعين، حدّ الغبطة الروحية التي كان يشعر بها الرجل المددّ داخل النعش، وهم يجتازون به الأمداء الشاسعة، ما بين موته ودفنه.
وأذهلته مسرته وبهجته، بالعودة إلى مسقط رأسه، عن تضاريس الأرض التي كان نعشه المحمول يمر بها، فما أحس بصعود المرتقيات، ولا بهبوط الوهاد، ولا بانتقال بين يابسة وماء في كل ما مرّ به الموكب الجنائزي المهيب.
كان مغموراً بسعادة رخية، لتنفيذ وصيته بدقة؛ وهي العودة به ليدفن في مسقط رأسه، الذي اغترب عنه طوال عمره، دون مبارحة مكانه.
وما أحسّ حملة النعش بثقل الحمل، ولا أحس المشيعون بتعب المشي، ولا شعر الكل بوهن العمر، فقد كانت همتهم وافرة لتنفيذ وصية فقيدهم الغالي.
وعندما كان النعش يعبر بين حَرّ وقَرّ، في تقلبات الفصول عليه، لم يكن الرجل المددّ فيه يشعر باختلاف، رغم أنه في حياته، كان يراقب ويترقّب تقلبات الفصول به؛ فأحبّ الشتاء في الصيف، وأحبّ الصيف في الشتاء، وغفل عن الربيع، وأحبّ الخريف في كلّ آن.
إلى أن باغته الخريف ذات عام، بأن طالبه بسداد كل ماله في ذمته من أوراق عمر ذاوية متساقطة. عندها تناول ورقة صغيرة من دفتر عتيق ظلّ فارغاً من أي كلام، فأذبلت أوراقه الأيام، وكتب عليها وصية مختصرة؛ أن يُدفن في مسقط رأسه تماماً.
فهي فرصته الوحيد للعودة إليه.
عندها، قام إليه أبواه فاحتضناه مودّعين، وقام هو إلى أبنائه فقبّلهم مودّعاً، ثم ارتقى إلى نعشه وتمدّد فيه، وما وجد حاجة إلى إعلان موته، إذ أن واقع الحال ينبئ عنه.
رغم غبطته الغامرة الفياضة، أحسّ الرجل المددّ في نعشه، بعد مسيرة زمن، بملل متخف راح يتسرّب إلى نفسه.
وإذ وجد أن محادثة أحدٍ من حملة نعشه أو مشيعيه، وهو على هذه الحال، يفتقد إلى اللياقة، وأن إقامة حوار بين ميت محمول، وبين حملة نعشه الأحياء، خروج على الناموس، فقد كان عليه أن يرد الملل، ويسلّي نفسه بالتذكار، خاصة حين أدرك، دون أن يدهش، أن المسافة بين موته ودفنه، مسافة شاسعة، لا يعرف أين بدؤها وأين نهايتها، وأن الزمان بين موته ودفنه استطال ليستغرق الزمن كله، دون أن يحدّد له الأزل نقطة بدء، وما حدد الأبد له نقطة انتهاء. وأن نقطة الانطلاق من مسقط الرأس في رحلة الذهاب، تنطبق تماماً على نقطة بلوغ سقوط الرأس في رحلة الإياب.
وإذ أدرك الرجل المددّ في نعشه كل هذه الحقائق، أُسقط في يده، فراح يسلي نفسه المتوحّدة، باستعراض شريط حياته، متمتماً لتعزية ذاته؛ بأن هذا الشريط رغم ما فيه من كآبة، فإن فيه ومضات ولحظات مبهجة، فراح يبحث عنها في عتمة الشريط وعتمة النعش، إلى أن اكتشف أن ذاكرته مضاءة رغم العتمتين.. فأخذت إيماضات ذكرياته تلتمع في رأسه المسجى في النعش، إلى أن ارتعشت فيه عبارة كانت بداية نطقه، ومفتتح حواره مع الحياة حين هتف: ..
«وأني كثير بي.. قليل بغيري.»
وبعدها ران عليه صمت مطبق، تصرّمت خلاله أزمنة ودهور، راح يدرك خلالها أن على دائرة العمر، أن تتسع لتشمل الحياة، وأن تلتف على نفسها للإلتقاء عند نقطة واحدة، فيها موضع مسقط الرأس في البدء، وفيها موضع سقوط الرأس في الختام..
فعاش الرجل المددّ الآن سعيداً في نعشه، حياة طويلة لتحقيق هذه الإلتقاء، بين ولادة صخّابة لا تكتمل إلاّ بموت ناجز، وهادئ.
في مطلع حياته، وما أن أطلّ على الدنيا، حتى أحسّ باغترابه الأول عن توحده بعدم هانئ وريقّ، الى وجود متقلقل، اودى به الى اغترابه الثاني في اواسط حياته، حين ازدهى بالدنيا، فاغترب عن توحّده بصفاء نفسه وعذوبتها، إلى غواية الغوص في عكر الآخر وسرابه الخادع، فارتدّ عنه عطشاً إلى اغترابه الثالث في أواخر حياته، فردّه خذلانه بالدنيا، إلى إعادة التوحّد بسعة ذاته، عن التبعثر في ضيق غيره.
عندما أحسّ الرجل بالدعة والسكينة، ارتقى خفيفاً طليقاً الى نعشه الذي مشى به على اكتاف خلق عرفهم في توحده الأليف، وعرفوه في تشطّره المضني.
ظلّ الرجل مستسلماً لهناءة تذكراته.. فما أحسّ كم مرّت أزمان، وكم امتدت أمداء، وهو محمول في نعشه مرتحلاً بين لحظة موته وموضع دفنه، إلاّ حين أحسّ بالنعش يهبط، ويهبط من مكان سامق العلو، إلى مكان سحيق، فأدرك أنه ينتقل الآن من كتف الدنيا، إلى قراراتها، فأحسّ براحة هانئة وغمرته السكينة.
وما أن بلغ النعش مستقره الأخير، حتى هتف الرجل لنفسه؛ ها قد وصلت.. وأنجزت ما نذرت عمري له، وبلغت أخيراً إقفال دائرة الحياة، وتبكيل ولادتي بموتي.
فتنهد بارتياح، واسترخى في قبره الرحب الدافئ، حسن الإضاءة. وأحسّ بأنه خلي البال، فزايلته كل همومه التي حملها دون أن يحمّلها إلى حاملي نعشه.
لكن ما أن راودته رغبة الإغفاء الأخير، في استرخائه الهانئ، حتى تفجّرت من مكان ما في القبر، ضحكة صخّابة، حالت بينه وبين الإغفاء، واضطربت لها جوارحه.
في البداية، حاول الرجل المددّ في قبره، أن يجد في رنين الضحكة أنساً.. لولا أنه أدرك بوعيه الذي رعاه طيلة حياته، أن الضحكة، ضحكة طفل، وأنه طفل حديث الولادة، وأنه ربما ولد للتو.
فأفزعه هذا الكشف.
وبدل أن يركن إلى النوم، قام واستوى، وراح يركض في أرجاء قبره الرحب، باحثاً عن مصدر الضحكة، التي راحت تكرج أمامه، فلا يبلغها أبداً.
وإذ شعر بالإعياء، وقف في منتصف القبر المترامي الأرجاء، فباغته وعيه الآخر الذي لم يحفل به طيلة حياته، بأن هذا الصوت، هو ذات الصوت الذي تفجّر منه لحظة ولادته، ورأسه ساقط متدلٍ إلى الأسفل.. وظنه لبراءة تلك اللحظة المبهمة صوت بكاء.
ما أن تيقّن الرجل الراكض في قبره، من هذه الحقيقة، حتى أقعده الذعر أرضاً، وراح يبكي بكاءاً مراً؛ إذ أحسّ أن جهاده لأن تلتقي رحلة الذهاب من مسقط رأسه في بدء حياته، برحلة الإياب إلى مسقط رأسه في ختام حياته.. كان كله عبثاً.
فزايلته غبطة رحلته كلها.
وتمنى، لو أن كل الذين شيعوا نعشه، وحملوه، كانوا بقربه في هذه اللحظة، ليتعزّى بهم، ويعتذر لهم، ويمزج عرق تعبهم الأبدي، بدموع راحته الأبدية.
لكنه ظلّ جالساً وحيداً.. دون أي عزاء.

كنت أقف في رتل من الخلق المتزاحم على باب مخبز، بعد أن مررت بكل مخابز المدينة، فطردني الزحام عن أبوابها، حين صحت بصوت ملتاع: «عندي أطفال، فماذا أطعمهم إذا ما تم الحصار، ووقعت الحرب».

فوجدت أن الزحام، ينفرج لي عن ممر إلى أكداس الكعك في الداخل، فملأت منه أكياساً، ثم خرجت من المخبز.

في البيت، قالت زوجتي: «لا يمسّ أحد هذا الكعك، فهو لأيام الحرب»

فاقتتل الأطفال حوله، فرفعته إلى مكان قصي.

غير أن الحرب لم تقع.. أو أنها وقعت بعيداً عنا.

وانتظرنا إلى أن تأكدنا من ابتعاد الحرب، ونأيها، فحمدنا الله على السلامة، وقمنا إلى البيت نعيد ترتيبه، والعناية به.

واكتشفنا كمية الكعك التي مازالت في أكياسها، فأخرجناها من مأمنها القصي، وتفحصتها زوجتي، فلاحظت أنها لم تعد صالحة لأكل الآدميين.

قالت: «لم تعد صالحة للأكل.».

قلت: «فما نفعل بها؟ نرميها!»

قالت: «حرام. تأخذها، أنت والأطفال، إلى المنتزه. تفتتونها، وتتركون فتاتها للعصافير التي تملأ أشجار وأجواء المنتزه».

راقت لي الفكرة، وراقت للأطفال أكثر.

فاخترنا ساعة ريقة، من نهار مشمس، في زمن السلم.. وذهبنا بأكياس الكعك.

وكنت في أوقات سابقة، أحب الذهاب إلى المنتزه، استمع إلى تغريد العصافير.. ففكرت ؛ أردّ هذه المرة لها بعض ما منحتني إياه من المتعة.

وهناك، انشغلنا بتفتيت الكعك، ونثره. وكانت كمية كبيرة، فظل فتاتها بارزاً فوق أرض المنتزه.

أحسسنا بالتعب، قبل أن تنزل العصافير التي تملأ الأجواء والأشجار، إلى الأرض لالتقاط الفتات.

واختلط تعب الأطفال، بإحساس الكآبة لعدم رؤيتهم العصافير تنزل، وتلتقط فتات الكعك.

فقلت: «لن تقترب ونحن هنا.. ربما بعد أن نذهب».

فغادرنا المكان، ونحن نستمع لسقسقة العصافير، ولم يشعر الصغار، بأية مسرة في رحلتهم.

وكنا ونحن نبتعد، ننظر إلى الوراء، فلم نلحظ هبوط أي طائر إلى الأرض، لتناول الفتات.. حتى غادرنا المنتزه.

ظل الأمر يشغلني بعد عودتنا إلى البيت، وأخذت أفكر في تصرف



العصافير الغريب.

وفي اليوم التالي، ما أن اقتنصت فرصة، حتى أسرعت فيها إلى المنتزه، واقتربت من المكان محاذراً.

كان الصمت يحيط بالمكان، وفوجئت بأنها المرة الأولى التي أجيء فيها إلى المنتزه، ولا أسمع تغريد العصافير.

كانت كل الطيور لابثة على أغصان الأشجار..

ولم تبد أية حركة لاقترابي.

وصار الصمت مطبقاً وثقيلاً.

وفوجئت بأن أكوام فتات الكعك، ما زالت كما هي.. لم تنقص، ولم تمس.

أدهشني الأمر، ونظرت إلى العصافير معاتباً، ثم انسللت مغادراً المكان، وأنا في أشد الحيرة من أمر العصافير والكعك.

صار الأمر يشغلني، وكأنه الموضوع الوحيد الذي يملأ تفكيري، ويؤرقني حتى صباح اليوم الثالث.

دون أن أكترث لأسئلة الصغار، ارتديت ملابسي، وخرجت مسرعاً إلى ذات المكان من المنتزه.

كان الصمت أكثر وحشة من اليوم السابق.

وحين أجلت النظر في المكان، فجعت بخلوه تماماً من أية طيور محلقة في الجو، أو هاجعة على الأغصان.

نظرت إلى مكان الفتات، فوجدتها مكومة مكانها، لم تنقص ولم تُمسّ.

لبثت زمناً منتظراً، فلم ألمح جناح طائر، كأنما هجرت الطيور المنتزه هجرة جماعية.

أحسست بكآبة، ثم تحرّكت مبتعداً، وعدت إلى البيت.

على الباب فوجئت بصغاري ينتظرونني..

سألوا: «أين كنت؟!»

أجبت بصوت خافت باهت: «في المنتزه».

سألوا: «هل أكلت العصافير فتات كعك الحرب؟»

هززت رأسي بحركة لم يُعرف منها، إن كنت أقول بالتأكيد «نعم».. أم بالتأكيد «لا».

إلاّ أنهم اكتفوا بذلك، وتفرقوا من حولي. فخطوت إلى الداخل، حتى وصلت إلى أقصى زاوية في البيت، ولبثت هناك ساكناً.

ولا أدري، لماذا داهمني هذا القدر من الخجل.

لبثت طيلة النهار، في غرفة مستطيلة، سقفها واطئ، تتجه إلى العالم بنافذة غربية، وباب شرقي.. كان يكفي أن أخطو إليه، لأصير قدماً أخرى للوحش البشري الهائم تحت سقف المدينة.

إلاّ أن قدميّ خذلتاني، وأقعدتاني مكاني طوال النهار، أحدّق بالنافذة، فيُمتعني كيف يتمدد الضوء عبرها، ثم ينكمش عنها.

وما أن مالت الشمس على الأفق الغربي، حتى ضقت بمكوثي، فقمت، ومشيت إلى الباب. فتحته، وأغلقته ورائي، وهمت في الدروب الممتدة المتقاطعة في الدنيا، وراء غرفتي.

وما كانت الأشياء من حولي، تستوقف خطوي، أو تستلفت انتباهي، أو تستثير أحاسيسي، أو تنعكس على حدقتي عيني، فكنت أفتحهما على اتساعهما، ولكن على ما يشبه الفراغ الباهت.

إلى أن وجدت نفسي، أو وجدتني نفسي، أتريث أمام باب دكّان غريب، للعاديات والمأثورات التاريخية العتيقة.

فقلت: أخرج مما أنا فيه، إلى ما كانوا هم فيه طي زمان غابر، ارتحلوا عنه، فارتاحوا.

وقلت: لعلي أجد في راحتهم راحتي، وأجد في غيابهم غياباً، عما أعانيه من وطأة زمني، تخفيفاً على نفسي.

وهكذا، هممت، ودخلت، وأجلت نظري في المكان.

فدهمتني روائح مختلطة من عبق أزمنة ارتحلت.

إلاّ أن أشياء قليلة أثارت فضولي، ولفتت انتباهي.

فقد وقع نظري على أعاجيب، منها فانوس عتيق أثار فيّ ما تخيلته في طفولتي عن مغامرات علاء الدين وفانوسه السحري، وبساط قديم، تمنيت أن يكون بساطاً طائراً، يضيف إلى بُعد الزمان نأي المكان.

ثم ثريا لشموع منطفئة، وقنديل وسراج، ومرآة زجاجها كثير الشروخ، ومحاط بإطار مطعم بالأصداف، وقفت أمامها فرأيت وجهاً زجاجياً مكسراً، فارتددت عنها وابتعدت.

وكلها لم تقع في هوى نفسي.

حتى لمحت بين الرفوف كتاباً تراكم عليه غبار الزمن، فاتجهت إليه. اقتربت من الكتاب محاذراً، وقد أخذ تهيبٌ غامض يتشكل في نفسي. ترددت يداي في الإمتداد إليه، إلاّ أنهما أخيراً وصلتا، فتناولتاه عن رفه، وقلبتاه أمام نظري. كانت جلدته مهترئة، فما تبينت شيئاً مما نقش عليها.

قلبت الجلدة، كانت تحتها ورقة كتب عليها بتأنق خط ذلك الزمان: «كتاب كشف التباريخ في ذكر المفاتيح». ثم بخط تحته، أصغر منه، وأقل عناية وأناقة، «كتبه العبد الفقير إلى الله القدير...». وبعدها كلمات مشوشة لا تبين.

بحثت عن صاحب الكتاب ومؤلفه، فلم أجد له ذكراً على الكتاب. واستهواني جرس عنوان الكتاب، وهي عناوين صارت مفتقدة في زماننا.

فحملت الكتاب، واطمأنت نفسي، واقتربت من صاحب الدكان، فابتسم ابتسامة أبهت من صفرة أوراق الكتاب، وقال: «هل تريده؟.» أومأت برأسي، وقلت: «إن كان ثمنه معتدلاً، وضمن طاقتي..».

قال: «لا تفكر في الأمر. فأنا أريد التخلص منه. فلا أحد زار دكاني، والتفت إليه. خذه بما ترى أنه يستحقه من ثمن، أو بما ترى أنك قادر على دفعه من ثمن.. أيهما أقل».

هكذا، أخذت الكتاب، وخرجت من الدكان، مسرعاً به إلى غرفتي.

وخطر لي في الطريق، وقد انشغلت بأمر الكتاب، إنه كتاب في مفاتيح القلب، وتباريح الغرام، على مألوف ما شاع في ذلك الزمان من تأليف في هذا الموضوع الذي استهوى الناس.

إلاّ أنني على ضوء خافت في زاوية من غرفتي، قلبّته، فوجدت أنه كتاب غريب في التاريخ، فقرأت:

«أنا العبد لله الطالب مغفرته ورضوانه، والذي من أجل التُقية والوقية، ودرء شرور العوام والحكام، أسميت نفسي بالمواطن سين، قد تعشقت فيما تعشقت كتابة التاريخ. فغصت فيه حتى نخاع العظام. وفي مروري ببرزخ ضيق، بين المعلوم الساطع من أيامه، وبين المجهول المعتم منها، اخترت أن أؤرخ لأيام الزمن المهجور، بادئاً بأيام المفاتيح، إذ لكل قلب جراح، ولكل باب مفتاح.

ولست أدّعي بأنني صاحب فضل في ما جاء في هذا الكتاب. فقد التقطت وقائع ما ورد فيه من أفواه الخلق الذين التقيت بهم، في تجوالي بين تجاعيد الزمان، وتطوافي في تعاريج المكان.

وأسميته كتاب كشف التباريح في ذكر المفاتيح، إذ وجدت هذا العنوان أكثر تشويقاً، إذا ما وقع الكتاب بين يديّ أحد من غير هذا الزمان».

ولم أستطع أن أكمل بقية ما ورد في المقدمة، إذ اهترأت الورقة، إلاّ عبارة «وبالله المستعان» في آخرها. فانتقلت إلى صُلب الكتاب. وما كدت أفتح أول ورقة فيه، حتى تسمرت عيناي على عبارة تتأرجح بين شعر ونثر غريبة عن مألوف أشعارذاك الزمان الذي كتب فيه الكتاب، ففكرت ربما كانت هذه الورقة مدسوسة على الكتاب.

وكادت الكلمات أن تخطفني مما أنا فيه، لولا أن عزمت على أن أتجاوزها من دون أن أفكر فيها.. فقلبت الصفحة وقرأت:

«ذكر المفتاح الأول..»

فارتحت لذلك، إذ ظننت أنني سأدخل رحابة التشويق والمتعة، وابتعد عن إعمال الذهن وكدّه في أمور لا طائل في عناء تفسيرها.

وجاء تحت العنوان المكتوب بالأحمر القاني، كتابة بالأزرق الباهت، تقول:

«حدثني شخص التقيت به صدفة، وما عدت أذكر اسمه، وإن كنت أذكر بعض ملامحها، قال:

كنت أمر بمحض الصدفة من أمام مخدع الملك عبدالله الصغير، آخر ملوك الطوائف في الزمن الغابر، وأول ملوك الطوائف في الزمن الحاضر. حين هبت به أمه مؤنبة صارخة فيه: إبك ملكاً لم تحافظ عليه. وسمعت نشيجه يختلط بصوت صرختها، فتريثت قليلاً عند الباب، حتى ذاب النشيج في الصمت. وأظن أن أمه (وهذا ما لم تذكره كل الكتب السابقة، ولن تذكره الكتب اللاحقة) قد تحركت فيها لواعج الأمومة، فأخذت رأسه على حضنها، وراحت تهدهده حتى أغفى، في انتظار طلة الفجر، حيث ستدق الأبواب جيوش ايزابيلا ملكة قشتالة، وصديقها الملك فرديناند، لاستلام مفتاح غرناطة من آخر ملوك الطوائف.

وأضاف الشخص، إنه يظن، بأن إيزابيلا، بعد أن أقفلت البيت العربي في الأندلس، وضعت المفتاح في صندوق مجوهراتها، ونسيت أمره، تحت ركام الجواهر التي وجدتها في قصور ملوك الطوائف.

وفي زمن ما، تسللت يد لا يأبه صاحبها بالجواهر، وحازت المفتاح، فاختفى منذ ذلك الحين، وأن ايزابيلا وأحفادها لم يكترثوا لفقده، ما دامت الجواهر هناك، وما دام البيت مكانه، خال من أهله، والباب مقفل».

وهنا توقفت عن القراءة، لا لأن بقية الكلام امّحى، بل لأقول بصوت خافت، أحادث به نفسي: «لم يكن الأمر هكذا..» وهممت بأن أضع الكتاب جانباً، إلاّ أنني حين استرددت أنفاسي، عدت إليه، وفتحته على ورقة خطها فاه، فاستطعت بعناء أن أقرأ:

«حدثني الشخص نفسه، أنه كان موجوداً بالصدفة، حين جاء هولاكو، حاملاً في طيات عباءته رياح الهلاك الصفراء.

وبينما كانت سنابك خيله تقتحم بغداد، وسيوفه تقطر دماً، وحين اختلط في مجرى النهر، الماء بالدم بحبر الكتب، وكوّن سائلاً كثيفاً، لم تعرف شرايين التاريخ مثله.. كان هولاكو خارجاً من قصر الخلافة، ملطخاً بالدم الفاغر من أعناق القوم، بعد أن حوّل القصر الذي كان يضج بالأنس، ومتع الحياة، إلى وحشة القبور.

وأضاف الشخص، وهو يحاول، مخطوف الأنفاس واللون، أن يكمل روايته، فقال:

وبينما كنت أتوارى رعباً وراء أحد الأعمدة، رأيت هولاكو يبحث عن المفتاح المذهب، للقصر الذهبي، حتى وجده يلمع متوهجاً في ثقب الباب، فأقفل باب الخلافة، ووضع المفتاح في زناره، بجانب قراب السيف، وخرج وهو يقهقه بصوت أجش، ويحسو من كأس فيه سائل أحمر قانٍ كثيف يحمله بيده.

وأضاف الشخص: وأظن أن أولاده وأحفاده، ظلوا يحملونه من بعده في زنانيرهم بجانب قراب سيوفهم، إذ ظنوا أنه صالح لفتح كل باب في كل زمان وكل مكان.

وبينما كان آخر حملته على فراش الموت، والندابون من حوله، امتدت يد تحت مظلة الموت المعتمة، إلى المفتاح واستلته، ولم يسأل أحد عنه في ما بعد «.

أغلقت الكتاب منفعلاً، وصرخت: «ليس الأمر على ما ذكرت».

وكدت أكره هذا الكتاب القائم في مجمله على الظن.

إلاّ أنني عدت لفتحه، لأكمل ما بدأت بقراءته، إذ لم يكن لديّ أمر أجدى.

وجدت على إحدى أوراقه، أن سائلاً ما، اختلط بحبر الكلمات الباقية، فما عادت ممكنة القراءة، فقلبت الأوراق إلى موضع آخر، وقرأت:

«حدثني الشخص قال:

كنت أتبع ركب عمر بن الخطاب، وهو يقترب من أبواب القدس.

وما تساءلت، لماذا يركب تابعه الناقة، بينما يمشي هو ممسكاً بمقودها.

فقد كنت منشغلاً بمراقبة قباب المدينة البهية، وتجاذب النور والظل على جدرانها المغتسلة بوهج ذلك النهار.

لكنني اضطررت لأن أشق لجسدي ممراً إلى موضع أقدر أن أرى منه، كيف تسلم الخليفة مفتاح المدينة، ثم مشى إليها محفوفاً بالسماحة والمهابة. وقد اختطفني المشهد من ذاتي. ثم تدافع الخلق، ودفعوني بعيداً، فلم أتبين لمن أعطى الخليفة المفتاح بعد تسلمه، ليظل أمانة بين يديّ أهلها.

وأكمل الشخص وعيناه تكادان تخضلان بالدمع: أظن أن أهل المدينة ظلوا يتناقلون أمانة حمل المفتاح، حتى كان يوم، انخلعت فيه الأبواب، وكادت تتهاوى الأسوار، وطُرق حديد المفتاح وسوّيَ زناد سلاح».

توقفت عن القراءة، وصحت حانقاً: «ليس الأمر على ما ذكرت، فالأسوار ظلت قائمة، ولكن بدل أن تصد الرياح، صارت تصد الناس. والأبواب ظلت في أماكنها من الأسوار، ولكن بدل أن تفتح لتفضي إلى الداخل، فُتحت لتفضي إلى الخارج «.

ثم هدأت، وقلت بصوت خافت: «على أنني أوافقك بأن حديد المفتاح طرق زناداً لسلاح.»

وكانت نفسي، اضطربت لهذه الواقعة، ففكرت؛ أزيل روعها بأن أتجاوزها، وأرى ما بعدها.
فقلبت صفحات الكتاب، على صفحة كثيرة التجعد، وخطها مشوش، وهي الوحيدة التي كثر فيها التشطيب والتعديل، وازدحمت حوافها بالهوامش.
أما في متن الصفحة، فقرأت:
«حدثني الشخص، قال:
كنت يوماً أجلس في دكان حداد، صانع للمفاتيح، وكنت أمضي في دكانه وقتاً ممطوطاً، فيما حرارة النار تلفح وجهي، وروائح الحديد المنصهر تزكم أنفي، والدخان ينعقد في جو المكان.
وكنت أحياناً أخرج من ضيقي بكل هذا، فأعاونه في بعض عمله، بأن أؤجج له النار بالنفخ بالكير. إلى أن جاءنا ذات نهار، غريبٌ هيئة، غريبٌ ملامح، غريب لكنة حين تحدث، وأغرب ما فيه مفتاح كبير يحمله بين يديه.
وقف عند الحداد، وقال: «ساعدني في هذا الأمر.»
سأله الحداد: «في أي أمر!»
قال الغريب: «في تفتيت هذا المفتاح الكبير، إلى مفاتيح صغيرة.»
احتار الحداد، ثم قال: «هذا طلب غريب.»
قال الغريب: «الدار الكبيرة انقسمت إلى دور صغيرة، والباب إلى أبواب، ولا يوجد غير هذا المفتاح، للثقوب الكثيرة في الأبواب الكثيرة، للدور الصغيرة الكثيرة.»
ومع أنني صحبت الحداد زمناً، وأنست لمعشره، وهدوء نفسه، رغم انشغاله الدائم بطرق الحديد أمام نار متقدة، فقد فوجئت به حين هب غاضباً في وجه الشخص الغريب، وصاح فيه: «اذهب عني. هذا أمر ما فعلته في حياتي، ولن أفعله على شفير مماتي.»
ومثلي بوغت الشخص الغريب، وخرج حاملاً المفتاح الكبير بين يديه.
إلاّ أن الحداد لم يعد إلى هدوئه بعد ذلك، وصارت نفسه في اضطراب ألسنة اللهب أمامه.
أما أنا فخرجت من دكان الحداد، ووجدت في ما حدث سبباً للانقطاع عن زيارته لزمن، بقيت أفكر أثناءه في أمر الغريب، ومفتاحه الأكثر غرابة، وأظن أنه وجد حداداً آخر يفتت له المفتاح إلى مفاتيح «.
هنا، وجدتني أبلغ حداً من الانفعال، لم آلفه في نفسي، فأغلقت الكتاب، وقلت: ليس الأمر على ما ذكرت. فالمفتاح ظل على ما كان عليه. المفتاح أودع أحد المتاحف، أما الأبواب، فظلت بلا مفاتيح، ليدخل إلى الدور من يدفع الأبواب من خارج، ويخرج من الدور من يدفع الأبواب من داخل.
وبقيت على هذه الحال، ممسكاً بالكتاب المغلق، محدقاً في فراغ الغرفة التي أخذت العتمة تجتاحها، إلى أن تنبهت إلى ما أنا فيه، فقلت: أريح نفسي وذهني قليلاً، فوضعت الكتاب جانباً، ووضعت نفسي في منأى عنه، وحاولت أن أنزلق إلى خدر تمنيته. إلاّ أن الخدر ظل عصياً، وظلت سكينتي أرقة.. فما قدرت أن أفارق الحالة التي دُفعت إليها.
والحقيقة أن قراءة هذا الكتاب على ما فيه من اختلاط، شاقتني، وتلهفت أن أمضي فيه، وأكمل قراءة ما كتبه صاحبه سين، على لسان الشخص (والذي لم أدر إن كان شخصاً واحداً، أم أشخاصاً طُمست أسماؤهم، وضاعت ملامحهم، فصاروا يلقبون بهذا اللقب العام). فقلبّت ما بقي من صفحاته، فلم أجد فيه غير عبارة مشوشة جاء فيها:
«لقد اكتشفت، ويا لهول ما اكتشفت، أنني أنا العبد الفقير إلى الله القدير، والذي تسمى باسم سين وُقية من شرور الحكام والعوام، غير قادر على المضي في التأريخ، وإكمال أيام المفاتيح، إذ اختلط في وعيي،



وعلى سن قلمي، الماضي بالحاضر، وكاد ينداح على المستقبل. واختلطت الرؤى بالأحلام، على الحد الرهيف بين اليقظة والأحلام وتداخلت الذكرى بالنسيان.

وكنت أجدني، وأنا أخط هذا الكتاب، منشطر النفس بين يومين: يوم ارتحل، ويوم لم يأت بعد.

وهكذا، سأكف عن كتابة أيام التاريخ المهجور، وأترك الصفحات الباقية من هذا الكتاب، بيضاء من غير سوء».

وفعلاً، ظلت الصفحات التالية من الكتاب بيضاء، لم تسوّد بأي كلمة أو إشارة، إنما أحالها الزمن الذي مر على بياضها إلى صفرة باهتة.

وأغوتني نفسي الولوعة بكل غريب، أن أكمل عليها ما قصّر صاحب الكتاب عنه.

إلاّ أن مدّ هذه الغواية، إرتد إلى جزر، ثم جف. فأغلقت الكتاب على ما فيه من سواد وبياض، ولبثت مكاني أرقاً حتى طلة الفجر.

وكان فجراً كابياً معتكر الأفق، لم أدر إن كان اعتكاره انعكاساً لاعتكار نفسي، أم أن نفسي اعتكرت لاعتكار الأفق الشرقي على هذا النحو.

وما أن صار الضوء خارج الغرفة، كافياً لأتبين عبره طريقي، حتى خرجت قاصداً الدكان.

وكنت أعرف بأنني سأجدها مغلقة، غير أنني عزمت أن أقف أمام بابها، ومعي الكتاب، إلى أن يأتي صاحبها، فأكاشفه بما في نفسي تجاه هذا الكتاب الغريب.

وهذا ما حدث ؛ إذ بقيت واقفاً بباب الدكان المغلق، وقد نسيت أمر الكتاب، وأنا مبهور بتحولات ضوء الصباح، وانهمار الخلق في طرقات المدينة وتلوّن هيئاتهم، وغرابة ما رأيته منهم في هذا الصباح الغريب.

إلى أن هلّ عليّ صاحب الدكان، وكانت خطواته مثقلة، وسحنته، كأنما بدلتها هذه الليلة تبديلاً شديداً. وما كنت لأعرفه لولا أنه اتجه مباشرة إلى باب الدكان من دون أن يعير وقفتي ببابه التفاتاً.

فدلفت وراء خطوته إلى الداخل.

وهناك، استدار إليّ وقال، وهو ينظر إلى الكتاب في يدي: «كنت أعرف أنك لن تطيق اقتناءه. فكل من اشتراه أخذه، ليلة واحدة، أرق معه فيها، ثم أعاده إليّ في صباح اليوم التالي. كذبت عليك حين قلت أن أحداً لم يلتفت إليه، فالأمر عكس ذلك. وكل من دخل الدكان لم يلتفت إلى غيره، فهات الكتاب، وخذ نقودك، وانصرف عني.».

قلت له: «لن أعيد الكتاب، ولن أسترد نقودي، ولن أنصرف عنك».

حدّق في وجهي، وتمتم: «أعد ما قلت. ».

قلت: «لن أعيد ما قلت، بل سأكمله، فقد جئت لأسألك».

قال: «ليس عندي أجوبة لأسئلتك.».

قلت: «قبل أن تعرفها!».

قال: «بل أعرفها، ستسألني: أين ذهبت كل تلك المفاتيح، التي تحدّث عنها الكتاب، وستقول لي هذا كتاب قائم على الظن. وسأجيبك: وماذا تظن، فالتاريخ كله قائم على الظن، ولا يقين فيه.»

والحقيقة، أنني لم أجد بعد ذلك رغبة لديّ في السؤال، أو الإستماع إلى الجواب، حتى بادرني الرجل بقوله: «هل تعرف بلدة أسمها المالحة؟».

ونظر في وجهي نظرة مركزة، إذ كان طوال الوقت السابق، لا ينظر إليّ مباشرة، بل يمد نظره أمامه، كأنما يخاطب جمعاً غير منظور.

ثم أعاد السؤال: «هل تعرف بلدة أسمها المالحة؟».

شعرت بغصة وأومأت برأسي.

أكمل الرجل، وكان يجهد أن لا يظهر انفعالاً بما يروي: «كانت المالحة، رغم اسمها، بلدة صافية ريقة، يعيش أهلها عيشة هنية رضية».

قلت: «أعرف كل هذا.».

أكمل دون أن يلتفت إلى ما قلت: «حتى أتاهم عصف الزمن العاتي، فذهب بنصف المالحة. وأحيط نصفها بأسلاك شائكة، فقسم أهلها إلى من هم وراء الأسلاك الشائكة، ومن هم وراء الأسلاك الشائكة، من الجهة الأخرى المقابلة. وعبر الأسلاك صاروا يتبادلون النظرات والعبرات والحسرات».

قلت: «أعرف كل هذا».

فنهرني مغضباً بأن لا أقاطعه، فصمت، وأكمل: «ثم جاء عصف الزمن العاتي مرة ثانية، فذهب بنصفها الآخر، وأزيلت الأسلاك الشائكة من منتصفها، ثم أحيطت كلها بها».

سألت: «فهل عاد أهلها إلى الإختلاط؟.».

قال: «اختلاط قهر. وبعضهم قذف به العصف بعيداً».

قلت: «فلماذا تحدّثني عنها الآن؟».

قال: «لأحدّثك عن المفتاح».

قلت: «أي مفتاح!».

قال: «مفتاح الجدة».

قلت: «أية جدّة؟».

قال: «التي كانت تحمل مفتاح الدار حول عنقها».

قلت: «أي دار!».

قال: «دارها في المالحة».

فلم أقل شيئاً، وأكمل: «كانت بعيدة عن الدار، صامتة ترنو إلى الأفق الغربي بعينين ذابلتين. وكانت تقبض على شيء معلق في عنقها بشريط قماشي أسود، ثم أطفأ الزمن عينيها، وماتت بعد أن انطفأتا بمشيئة الله، وتقدّم العمر، وكل مَن حولها يتساءلون عن الشيء الذي تمسكه في نهاية الشريط الأسود. ولم يجرؤ أحد أن يسألها أثناء حياتها، فكانوا ينتظرون موتها ليعرفوا. وظلّت لحظة موتها مطبقة عليه، إلاّ أن طقوسية الموت، استدعت أن تُفك قبضتها.. فتبين أنها كانت طوال حياتها تقبض على مفتاح عتيق. وهنا شهق الأبناء الملتفون حول الجثمان، عبر غصّات اللوعة ومشاعر الأسى والحزن، فامتدت الأيدي إلى عنق الجدة، وفكّت الشريط الأسود، وناولت المفتاح من دون الشريط، إلى إبن الجدة الأكبر، الوارث الشرعي، فقال: لا حاجة بي إلى تعليقه بعنقي، فأنا أكثر حرصاً ووعياً من أمي، ويكفي أن أحفظه في جيبي.. ودسّ المفتاح في جيبه، ثم عاد الجميع إلى النشيج والنحيب والندب، حول جثمان الجدة المسجى».

وهنا توقف الرجل بشكل مباغت عن الكلام، وكأنما غصة موجعة، سدت عليه منافذ القول، وتغيرت ملامحه إلى كمد قاتم، وأشاح بوجهه عني، وسمعت صوتاً حارقاً لنشيجه ونحيبه الموجع.

صعقني الموقف الذي وجدتني أمامه، وتمسكت بالصمت، في مهب الحيرة.

وظل الرجل يبكي، وكأنما أُخذ من نفسه في غيبوبة ناحبة، لم يخرجني منها، إلاّ صوت حاد صارخ من زاوية معتمة من زوايا الدكان: «أبك مفتاحاً مضاعاً لم تحافظ عليه.».

توقف الرجل عن النشيج، والتفت إليّ، لا إلى مصدر الصوت.

وكنت غرقت في دوامة من الربكة، أخرجني منها بأن قال: «إنه إبني، وقد حوله العقوق إلى قاضٍ وجلاد، فلا تكترث له».

قلت: «أين هو؟».

قال: «إنه هناك ينام في الدكان ليحرسها».

وقبل أن أستجمع وعيي المشتت، طلع علينا الصبي من زاويته، وتقدّم من أبيه، وقال: «أضعت المفتاح، ولا تفعل شيئاً إلاّ أن تبكيه.».

رمتني عبارة الولد في لجة حيرة جديدة، انتشلني منها الرجل بالقول: «أنا ابن الجدة الأكبر.. وهذا حفيدها». ومد يده إلى جيبه، وأخرج منها مفتاحاً، رفعه وقال: «ها هو. ».

صاح الولد: «إنه ليس هو. ضاع منك، وأنت تتلهى بجمع المفاتيح الأثرية في هذا الدكان».

وكنت طوال الوقت أحدق ذهلاً في المفتاح في يد الرجل، فالتفت الولد إليه، وقال: «هذا ليس مفتاح دار الجدة. هذا صنعه أبي من فتات المفاتيح الأثرية الملمومة، ليوهم نفسه بأن المفتاح باق معه».

وكان الرجل الأب صامتاً طوال الوقت، ينظر إلى إبنه، نظرات غريبة، يختلط فيها العتب بالغضب بتوسل الرحمة.

وظل الولد الغاضب، يصب نظرات حارقة على وجه أبيه، ثم التفت إليّ وقال بصوت أقل حدّة من قبل: «سجنني في هذا الدكان لأحرسها، وهي التي لا تضم شيئاً ذا قيمة، إلاعاديات أهملها الزمن. وسجن نفسه في طيات هذا الكتاب (وأشار إلى الكتاب الذي أحمله) ليعطيه إلى كل من يدخل الدكان، ليرجعه إليه في اليوم التالي.. ثم يبكي هكذا».

وقبل أن أبدي أي انفعال بما قال، وقبل أن أوضّح بأنني لن أرجع الكتاب، كان الولد اختطف الكتاب من يدي، وراح بهوس غاضب، يمزق أوراقه، تمزيقاً شديداً، حتى أحاله فتاتاً، ألقى به إلى الأرض.

ثم تنفس بعمق، وقال: «الآن أُخرجه من سجن هذا الكتاب. أما أنا فأخرج من سجني هذا».

واندفع نحو باب الدكان.

فشهق الأب وراءه، وناداه: «إلى أين؟».

قال الإبن من دون أن يلتفت: «إلى الدار».

صاح الأب، وراءه: «المفتاح معي.. خذه». ومد يده به. إلاّ أن الإبن رمقه شزراً من عند الباب، ثم استدار واندفع خارجاً من باب الدكان.

ظل الرجل يتطلع وراء إبنه حتى اختفى بعيداً عن ناظريه.

فنكس رأسه، وجلس على كرسيه، وران عليه صمت مطبق، أخذه بعيداً عني، وقذفني بعيداً عنه.

إحترت في أمري، وفي وقفتي المربكة داخل الدكان، بعد أن سكن الأب ذاهباً في اتجاه، وانطلق الإبن ذاهباً في اتجاه.

نظرت إلى مزق كتاب «كشف التباريح في ذكر المفاتيح» ثم انحنيت إليها، ورحت ألمّها، حتى ظننت بأنني جمعتها كلها.

فألقيت نظرة على الرجل، وتسللت خارج الدكان.

*

كان ذلك في يوم مَرّ.

ومنذ ذلك اليوم، وأنا عاكف في غرفتي، على محاولة أن أجمع مزق أوراق الكتاب إلى بعضها.. لا أفعل شيئاً غير هذا، حتى أعدت جمعه وتلصيقه.

وكنت عندما عدت إلى الكتاب، وجدت أنني أخطأت في الصاق بعض مزقه، فتشوش فيه سير الأحداث، واختلطت الوقائع.

ولم أجد فيّ همة، تعينني على إعادة ترتيبه، فرضيت بما بين يدي.

واعتبرته كتاباً نادراً، ومشوقاً، وصالحاً لتزجية الوقت، وقتل الفراغ.

إذ استغرقتني إعادة قراءته، على نحو ما جمعته به، حتى أنني لم أعد أجد فيّ فضولاً لأعرف ماذا جرى للدكان والرجل...

ولا إن كان الإبن وجد الدار، وكيف سيدخلها.



موت بائعة الورد

في كل بيت من بيوت الحي، حوض ورد يُنبت ويُزهر من الورد، أكثر مما يحتاج أهل البيت.
إمرأة الحي الفقيرة العجوز الوحيدة، تقطف الفائض من الورد، تنسقه في باقات، وتبيعه في الأحياء الأخرى، للعشاق، وزائري المرضى، والمحتفلين بالأعراس، ومشيعي الجنازات.
المرأة، بائعة الورد، تجرّد أغصان الورد من أشواكها تماماً، وتكوّم الأشواك في زاوية غرفتها لكي لا تؤذي بها أحداً.
بائعة الورد، ظلّت على هذا الحال زمناً تكوّم الأشواك عندها، وتبيع الورد للآخرين. وأحواض الورد في حينا تزهر دوماً.
في ليلة ما، كانت بائعة الورد تقطع غرفتها بوهن من زاوية إلى زاوية، حين تعثرت في العتمة، وسقطت فوق كوم الأشواك.
نخزت الأشواك جسدها الضامر الهش، ولم تقو على النهوض، فظلّت تتقلّب من الألم فوق الأشواك، التي راحت تفتح في جسدها ثغرات دقيقة، تنز منها الدماء، حتى الصباح.
في الصباح كان في غرفة امرأة الحي العجوز، أشواك كثيرة وعلى رأس كل شوكة قطرة دم حمراء.. وورود كثيرة، لم يعد هناك من يجردها من أشواكها.



الموت في الحديقة

كان وحيداً في يوم خريف، في ساعة غسق، يجلس تحت أغصان وأوراق شجرة ما، على مقعد ما. المقعد في حديقة والحديقة في ضاحية، الضاحية في مدينة، المدينة في بلد، البلد في قارة.

القارة قطعة من اليابسة طافية عل لجة الماء، على سطح الكرة الأرضية التي يحب، والتي يتخيلها أحياناً على شكل قلب إنسان.

الكرة الأرضية، سابحة في الكون، ومتناهية في الصغر، وقد قرأ مرة في كتاب ؛ «أن المتناهي في الصغر هو أحد مأوي العظمة».

أما هو، فما كان صغيراً، وما كان كبيراً.

بل كان وحيداً.. وكان صامتاً.

لا ضجيج في الخارج، ولا ضجيج في الداخل. إلاّ أصداء بعيدة مبهمة لنشيد الموت الذي يُسمع في وقت الصمت.

فجأة، هبت نسمة.. نسمة رقيقة طرية، لا تكاد تخدش السكون، ولكنها أسقطت من الشجرة ورقة.

سقطت الورقة في راحة يده المبسوطة على حضنه. ارتعش إذ سمع لسقوط الورقة في راحة يده، صوتاً مدوياً.

أعاده الصوت من الكون إلى الأرض إلى القارة إلى البلد إلى المدينة إلى الضاحية إلى الحديقة إلى المقعد تحت الشجرة.

فعبر إلى نفسه، حيث ذاب الصوت في الصدى، وذاب الصدى في الصمت، فتعالى فيه نشيد الموت.

فانفتحت عيناه، وظلتا شاخصتين تحدقان في الورقة، وصار كل ما عدا ذلك مغلقاً.

توّحد، ولم يعد وحيداً.